كتاب اليوم
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

دكتور أحمد صبحي منصور

مصر في القرآن الكريم



اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

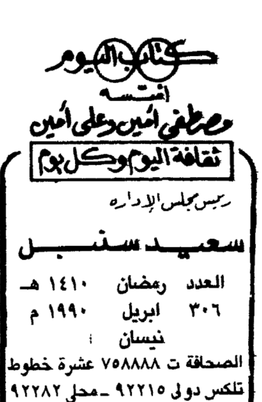
دكتور أحمد صبحى منصور

مصر في القرآن الكريم

المشرف على التحرير : جمال الغيطانى

● العدد ٣٠٦ ● ابريل ١٩٩٠ ●





رئيس مجلس الإدارة

سعيد سنبل

العدد ٣٠٦ رمضان ١٤١٠ هـ
ابريل نيسان ١٩٩٠ م

الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط
تلكس دولى ٩٢٢١٥ ـ محلى ٩٢٢٨٢

الاشـــتراكات

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيه مصرى

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى ١٥ دولار امريكى اوما يعادله
باقى دول العالم واوربا والامريكتين واسيا واستراليا ٢٠ دولار امريكى اوما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ٣ ا ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم

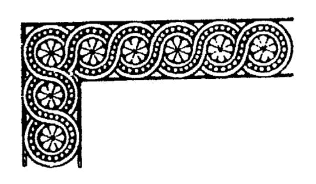
المغرب	١٥	درهم
لبنان	٥٠٠	ليرة
الأردن	٧٥٠	فلس
العراق	٣٠٠٠	فلس
الكويت	٧٠٠	فلس
السعودية	٧	ريالات
السودان	٥٠٠	قرش
تونس	١٤٠٠	مليما
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	١٤٠٠	ق.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	٨٥٠	فلس
سلطنة عمان	٧٠٠	بيسة
غزة	١٠٠	سنت
اليمن	٨	ريالات
الصومال نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الامارات	٨	درهم
قطر	٨	ريالات
انجلترا	٦٢٥	بنى
فرنسا	١٠	فرن
المانيا	٥	مارك

فى الخارج

إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	روبية
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرونات
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	سنتا
كندا امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كرويزو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الغلاف : محمود الهندى
● الماكيت : محمد عفت


بسم الله الرحمن الرحيم



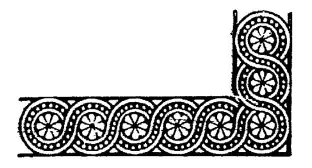
الاهداء

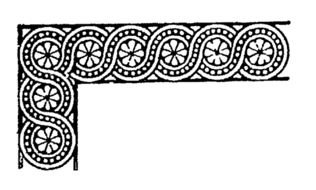
إلى : سحرة فرعون .

المثل الأعلى الذى ضربه المصريون فى التضحية فى سبيل الحق ..

« قالوا : لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهتنا عليه من السحر والله خير وابقى . . »

(الآيات ٧٢ و ٧٣ من سورة طه)





تمهيد

القرآن الكريم كتاب إلهى فى الدعوة للهداية أساسا . وليس كتابا متخصصا فى العلوم أو فى التاريخ ، إلا أنه من خلال دعوته للهداية حوى كل الأساليب من إيراد القصص التاريخى وضرب الأمثلة والاتيان بالحقائق العلمية اليقينية .

وهكذا فالحقيقة التاريخية المذكورة فى القرآن ليست هدفا فى حد ذاتها وانما هى وسيلة للهدف الاساسى وهو الهداية للحق ، وتبعا لذلك فان منهج القرآن فى ايراد القصص التاريخى يختلف عن المنهج التاريخى للمؤرخين . فالمؤرخ حين يذكر حادثة تاريخية معينة لابد أن يهبط بها على أرض الواقع بأن يذكر المكان والزمان والأبطال . ولايهتم المؤرخ بايراد العبرة من الاحداث بل ربما يتركها للقارىء .

أما القرآن فله شأن مختلف فالعبرة هى الأساس من ايراد القصص القرآنى . يقول تعالى فى نهاية سورة يوسف التى ركزت على قصة يوسف عليه السلام وآله

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . »[1] .

(سورة يوسف ١١١)

وقد يكون من الأوقع فى الاعتبار والاتعاظ أن تتحرر الحادثة التاريخية من قيود الزمان والمكان وأسماء الأشخاص لتتحول الحادثة المحددة بالزمان والمكان الى قضية عامة تنطبق على كل عصر وكل مكان وكل شخص اذا انطبقت عليه ملابساتها .

وتلك عظمة القصص القرآنى الذى لم يتحدث عن كفار قريش مثلا بان يحصرهم فى الزمان والمكان بل عمم الوصف فقال

« الذين كفروا » او « الذين أشركوا . »

لينطبق ذلك الوصف على كل من يستحقه

يقول تعالى مالا

« أم اتخذوا من دون الله شفعاء ؟ قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولايعقلون ؟ قل : لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم اليه ترجعون . وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة . وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون . .)[2]

(.سورة الزمر ٤٣ ٤٥)

فالقرآن يحول عقيدة القرشيين في القرن السابع الميلادى الى قضية عامة لم يرد فيها ذكر للتحديد بالزمان أو المكان وبذلك تنطبق الآية على جميع من وصفتهم الآية بالذين

« لايؤمنون بالآخرة . » .

ومع ان القرآن قصَّ كثيرا من الاحداث التى عاصرت نزول الوحى وكان يعقب عليها فان المنهج القرآنى كان يحول الحادثة التاريخية المحددة الى قضية عامة ويكفى ان كلمة قريش لم تات في القرآن الا مرة واحدة وان كلمة « عربى » لم تات الا للدلالة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم[٣] . وحتى في الأحداث المحلية التى استدعت تحديد بعض الطوائف أو الأسماء فان تذييل الآيات كان يتضمن الدعوة للعبرة والتخويف من الآخرة وبذلك تتحول الحادثة التاريخية الى قضية عامة تستوجب من كل انسان في أى زمان ومكان أن يتعقلها ويتدبرها

ولانعنى أن القرآن أغفل نهائيا عنصر المكان وعنصر الأبطال القائمين بالحدث .

ففى القصص القرآنى اشارات موحية عن المكان في حديثه عن سبأ وقوم عاد بالاحقاف ويثرب المدينة ومدين التى يعمل أهلها بالتجارة . وهذه الاشارات الموحية دعوة صريحة لعلماء الأثار لينقبوا ويستخرجوا مايؤكد الوصف القرآنى مما يزيد في جرعة الهداية

لقد انتقلت الأمم والدول التى ذكرها القرآن الى متحف التاريخ وبقيت « مصر » وحدها وقد ورد ذكرها في القرآن خلال قصص الانبياء يعقوب ويوسف وموسى عليهم السلام . والله تعالى يعلم ـ وكفى به عليما ـ أن مصر ستبقى بعد نزول القرآن كما كانت قبله فإلى أى حد يكون الدرس الذى نتعلمه من القصص القرآنى عن مصر ؟ .

□ □ □

أن التاريخ المصرى مستمر فى جريانه فى أغلب عصوره ، وهو تاريخ يتميز بالرتابة والاصالة فى أغلب احداثه ، وقد بدأ ذلك التاريخ المصرى قبل نزول القرآن بنحو ٣٨٥٠ عاما واستمر بعده حتى الآن والى أن يشاء الله . وذلك كله مما يؤكد أن حديث القرآن الكريم عن « مصر » لايقتصر على الماضى فقط وانما يمتد للحاضر والمستقبل ، خصوصا وأن القصص القرآنى - كما سبق - يهدف للعبرة واستخلاص العظة حتى لايقع الناس فيما وقع فيه أسلافهم ، وان كان ذلك ينطبق على قصص الأمم البائدة من عاد وثمود فانه اكثر انطباقا على المصريين الذين يعيشون فى مصر منذ سبعين قرنا من الزمان .

□ □ □

وهذا الكتاب

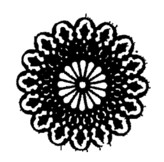
« مصر فى القرآن الكريم »

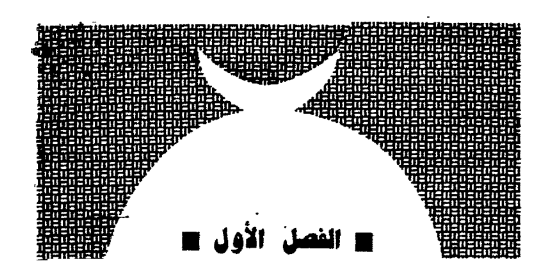
يحاول أن يستخلص الموعظة والعبرة من القصص القرآنى عن مصر . وذلك بعد أن يتتبع الاشارات القرآنية ليستضىء بها فى رسم صورة تاريخية لأحوال مصر السياسية والاجتماعية فى عصر الهكسوس والرعامسة « رمسيس الأول وخلفاؤه . » ومن الطبيعى ان تلك الاشارات القرآنية عن الحياة المصرية القديمة لاترسم لوحة متكاملة ، ولكن من قال ان كتب التاريخ وعلماء المصريات قد جاءوا لنا بتاريخ مفصل متكامل للحياة المصرية القديمة ، مع أن ذلك هو عملهم الاساسى وهدفهم الأصلى ، أما القرآن فليس كتابا فى التاريخ ملتزم بمناهج المؤرخين ومع ذلك فان الاشارات القرآنية التى حفل بها كتاب الله منذ ١٤٠٠ عام تؤكدها اكتشافات علماء الآثار ثم ان هذه الحقائق التاريخية القرآنية لامجال فيها للريب أو الشك بينما يكتشف علماء الآثار كل حين أن بعض الفراعنة قد طمس أمجاد اسلافه ونسبها لنفسه ، فالتاريخ البشرى حتى بالهيروغليفية عرف التزييف أما قصص القرآن فهو كما قال تعالى

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . »

دكتور احمد صبحى منصور

□ □ □

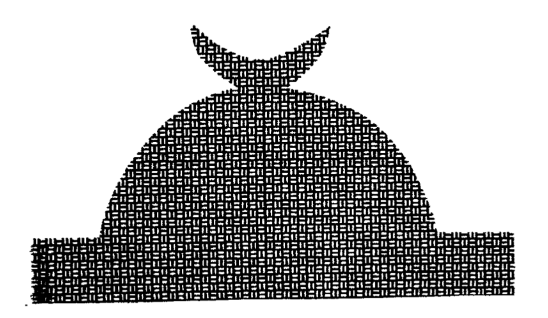




■ الفصل الأول ■

« الحياة السياسية في مصر القديمة »

من خلال ايات القران الكريم..



أولا : كلمة مصر فى القران الكريم :

جاءت كلمة (مصر) فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع هى « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا » و « وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته اكرمى مثواه . . » و « وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » و « ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر . . »

وفى قوله تعالى فى قصة موسى قال .

« اهبطوا مصرا . . »[1]

وواضح ان كلمة « مصر » قد وردت فى سياق قصتى يوسف وموسى الا ان الامر الذى يستدعى ايضاحا هو قوله تعالى على لسان موسى لقومه

« قـال اهبـطوا مصـــرا فـان لكـم ماسألتم . » .

فكلمة « مصر » هنا لاتدل على مصر الوطن وانما تعنى المدينة المتحضرة أىَّ مدينة متحضرة فى أى مكان . ودليلنا ان كلمة « مصر » فى الآية جاءت مفعولا به منصوبا وهى منونة « مصراً » أى ليست ممنوعة من الصرف ، وفى موضع آخر يقول تعالى على لسان يوسف

« قال ادخلوا مصر ان شاء الله »

فجاءت الكلمة هنا « مصر » تدل على الوطن وهى مفعول به أيضا ومنصوب ولكن بدون تنوين لأنها ممنوعة من الصرف حيث تدل على (مصر) الوطن الأعجمى .

● وهذه التفرقة اللغوية الدقيقة بين كلمة « مصر » فى الآيتين توضح ان كلمة « مصر » لها معنيان :

(١) معنى الوطن الذى يعيش فيه المصريون

وهذا هو المعنى الذى ورد فى القرآن ممنوعا من الصرف أى بدون تنوين ، وذلك فى أربعة مواضع .

(٢) معنى المدينة المتحضرة .

وفى القاموس فى معانى كلمة مصر « مصروا المكان تمصيرا جعلوه مصرا فتمصر »[٢] ومصر أى المدينة التى تتميز عما حولها من بوادى ، ونفهم ذلك من قولهم عن عمر بن الخطاب انه الذى « مصر الأمصار » أى « أنشأ الامصار » أو آنه بعث العمال أو الولاة على « الامصار » أى الولايات . وقد اطلقوا على الكوفة والبصرة لقب « المصران » مثنى « مصر » وقد بدأ التمدن فى العالم ببناء المدن فى مصر لذا نحتت اللغة العربية كلمة « مصر » لتدل بها على قيام الدولة أو المدينة المتحضرة التى تحيط بها البوادى . وفى قصة يوسف قوله لاخوته وهو فى سلطانه فى مصر

« وجَاء بكم من البدو . . »[٣]

أى كان شرق مصر فى ذلك الوقت رعويا بدويا وهكذا فان موسى حين قال لقومه « اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم »

تفيد أى مدينة ولا تدل على الوطن المصرى على وجه الخصوص .

وكلمة « مصر » بمعنى البلد المتمدن أو الدولة تعتبر اعترافا من اللغة العربية بقدم العمران المصرى والحضارة المصرية ، فالعرب حين عرفوا النطق باللغة العربية استعاروا كلمة « مصر » لتدل على المدينة والحضارة ، ثم جاء القرآن فيما بعد يسجل هذا المعنى ويميزه بفارق لغوى دقيق حين يجعل كلمة « مصر » الوطن ممنوعة من الصرف باعتبارها علما ـ وذلك فى أربعة مواضع ، ثم تكون كلمة « مصر » الدالة على المدينة منونة فى موضع وحيد فى القرآن الكريم .

وهناك أهمية أخرى يضيفها القرآن الكريم على مصر حين يعبر عنها بلفظ « الأرض » والنسق القرآن يضفى وصف الأرض على وطن ما اذا بلغ قومه درجة كافية من القوة ونفهم ذلك من قوله تعالى

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة »(٤)

ولذلك فقد استحقت مصر من القرآن أن تُوصف بأنها « الارض » حيث عاشت الدولة فيها قوية مهابة فى عصور طويلة موغلة فى القدم وخصوصا فى عصر الرعامسة الذى شهد قصة موسى . وتقرأ فى ذلك قوله تعالى فى سورة القصص على سبيل المثال .

« أن فرعون علا فى الأرض . . »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض . . » « ونمكن لهم فى الأرض . . » « إن تريد الا أن تكون

جبارا فى الأرض . . » « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق . . »(٥)

ونسير مع قصة موسى فى سورة الأعراف لنجد القرآن أيضا يعبر عن مصر باسم الأرض فى قوله تعالى

« وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض . . » « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده . . » « قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض . . »

الى آن يقول تعالى عن نهاية فرعون ويصف مصر بأروع وصف

« وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها . . »(٦)

وفى قصة يوسف يقول تعالى عن تطور مكانة يوسف فى مصر

« وكذلك مكنا ليوسف فى الارض »

وحين طلب وظيفة من الملك قال له

« اجعلنى على خزائن الأرض »(٧)

فكانت خزائن مصر هى خزائن الأرض جميعا .

وقد عكس القرآن الكريم احساس المصريين القدامى بآن مصر تمثل الأرض كلها فى ذلك الوقت حيث تركزت فيها الحضارة والمدنية بينما تعيش أوربا فى الكهوف ، يقول مؤمن آل فرعون لقومه

« ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ؟ »(٨)

وفى الوقت نفسه كان فرعون يخشى من دعوة موسى ان تتمخض عن إنهيار حضارة مصر فيقول لقومه

« إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد »(٨)

وعبرً القرآن الكريم عن اعتزاز المصريين بوطنهم ويتجلى ذلك فى قولهم لموسى أو عن موسى وأخيه

« قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم . » « قال اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ »(٩)

فقالو « أرضنا » و « أرضكم » تمسكا منهم بوطنهم . والقرآن الكريم حين يضفى على مصر وصف الأرض انما يعكس أيضا اعجازا تاريخيا يضاف الى اعجازاته المتنوعة فى الفصاحة والعلوم . ذلك ان ما نقله القرآن الكريم باللغة العربية عن اعتزاز المصريين بأرضهم سجله فيما بعد علماء المصريات حين عرفوا رموز اللغة الهيروغليفية وقرأوها وعرفوا أن كلمة « توميرى » كانت متداولة على لسان المصريين وتعنى عندهم « الأرض المحبوبة » أى مصر ، وفى نفس الوقت يقولون عن الصحراء وما لايعرفونه من الأرض المجهولة والتى لايهتمون بها انها « أخيت » .

ولايزال المجال مفتوحا أمام علماء الآثار والمصريات لاكتشاف المزيد مما أشار اليه القرآن الكريم .

□ □ □

ثانيا : لمحات قرانية عن النظام السياسى المصرى فى عصر يوسف عليه السلام

رأينا اشارة قرآنية لعظمة الدولة المصرية منذ القدم من خلال ورود كلمة (مصر) فى القرآن ومن خلال الاشارة اليها على أنها « الأرض » ، ومن الطبيعى أن هذه العظمة الدنيوية تتجلى أساسا فى نظام الحكم السياسى وقوة الدولة المصرية .

والدولة المصرية القديمة (٣٢٠٠ ـ ٢٢٥٠) ق. م ، بدأت بتوحيد القطرين ثم ازدهرت ثم انهارت . ولم يحدث وقت انهيارها أن استولى على مصر عدو خارجى لأنه فى ذلك الوقت السحيق لم توجد قوة تجرؤ على استغلال الضعف الداخلى فى مصر[١٠]

ولذلك عادت مصر للاتحاد والقوة فى عصر الدولة الوسطى الا أن الانهيار مالبث أن لحقها وحينئذ ظهرت قوة خارجية استغلت ذلك الضعف فسيطرت على مصر خصوصا فى الدلتا وكان الرعاة الهكسوس هم تلك القوة الوافدة من الشرق . وعاد الحكم المصرى القوى بعد أن دحر احمس الهكسوس وبدأت بذلك الدولة الحديثة التى بلغت عظمتها فى عصر الرعامسة ..

وقد تعرض القرآن الكريم للتاريخ المصرى فى مرحلتين هامتين تمثلان مرحلتى الحكم المصرى الأصيل ومرحلة الحكم الوافد . ففى قصة يوسف كان الهكسوس يحكمون مصر . وفى قصة موسى كان الفرعون ممثلا لمصر والمصريين . والتاريخ المصرى الطويل هو نتاج للحكم المصرى الوطنى والحكم الأجنبى المستعمر .

ومن اعجاز القرآن الكريم منذ ١٤٠٠ عام أن يتحدث عن حاكم مصر فى عصر يوسف بوصفه (الملك) بينما يتحدث عن حاكم مصر فى عصر موسى بأنه « فرعون » وان تاتى الاشارات موحية بالاختلاف بين نظم الحكم فى العصرين لتشير بأن كلا منهما يختلف عن الآخر ..

فى قصة يوسف وصف القرآن حاكم مصر وقتها بأنه الملك فى خمسة مواضع[11] ولم يصفه بالفرعون ، بينما ذكر القرآن فى قصة موسى لقب الفرعون (٧٤) مرة ولم يذكره بأنه مجرد ملك .

٢ ـ ويقول مؤرخو مصر القديمة ان الهكسوس لم يتركوا بمصر آثارا يمكن ان نستخلص منها شيئا عن نظام حكمهم[12] الأمر الذى يجعل من الاشارات القرآنية عن ملك الهكسوس فى مصر المصدر الوحيد المتاح علاوة على انه المصدر اليقينى الذى لاريب فيه فى كل مايخبر به من أقوال وأحداث .

ويمكن أن نتخيل شخصية الملك الهكسوسى من خلال قصة يوسف ، فهو ملك له « ملأ » اى مجلس مشورة يستشيرهم ، وأن كانت علاقته بذلك الملأ لاترقى الى العلاقة العضوية التى كانت بين فرعون موسى وملائه . فبينما يجد فرعون موسى كل التأييد من ملائه نرى الملك الهكسوسى يفتقد حماس اتباعه حين قَصَّ عليهم رؤياه

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا اضغاث أحلام ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين . »[13]

ومن دراسة النصوص القرآنية التى تتناول علاقة فرعون موسى بملائه يمكننا أن نتوقع رد فعل مناقض ، فلو تخيلنا أن فرعون موسى قص على ملائه رؤياه وقال لهم

« يا أيها الملأ افتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون »

لسارعوا بتفسير للرؤيا يعرفون انه يتفق مع هوى الفرعون . ولربما احضروا له سريعا السحرة والمنجمين والعرافين . وماكانوا بالتاكيد سيقولون له فى تثاؤب وكسل

« أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين . . »

□ □ □

ومع ذلك فالملك الهكسوسى كان لايخلو من فراسة صادقة ومعرفة باقدار الرجال ويتجلى ذلك فى اختياره ليوسف الذى تمَّ بعد تفكير ودراسة نعرفها من خلال الآيات . فالملك حين خاب امله فى الملأ الذى عجز عن تعبير رؤياه رشح له الساقى ـ زميل يوسف فى السجن من قبل ـ يوسف لياخذ منه تعبير الرؤيا وارسله الملك الى حيث يوسف فى السجن ، ثم عاد الساقى بتفسير الرؤيا . وعرضها على الملك ولا بد ان الملك قد ادرك ان تعبير الرؤيا ليس مجرد كلام يقال على عواهنه بل هو امر خطير سيحدث فى المستقبل . وانه ليس مجرد تفسير بل هو خطة متكاملة للمستقبل تستلزم استعدادا لسنوات المجاعة . وتوفيرا من انتاج المحاصيل فى سبع سنوات من الرخاء ليستعين بها المصريون ومن حولهم فى سبع سنوات اخرى من المجاعة .

وايقن الملك بعد تفكير ان الحل الأمثل هو ان يستدعى يوسف ويحرره من السجن ليستعين بمشورته . وذلك الحرص على الاستشارة والمشورة من جانب الملك الهكسوسى فى قضية مصيرية تهم العامة والخاصة من الجوانب الايجابية فى شخصيته .

وارسل الملك رسولا خاصا من لدنه الى يوسف فى السجن . وذلك تكريم خاص ليوسف لايحلم به سجين فى تلك العصور . ولكن يوسف اصر ان يخرج من السجن وصفحته نقية من تلك التهمة الكاذبة التى

ألصقوها به ظلما . وأدى ذلك الموقف من يوسف الى تصعيد جديد أثار اهتمام الملك بيوسف اكثر ، ولاريب ان الساقى قد حدث الملك من قبل عن شخصية يوسف من خلال احتكاكه به فى السجن ، ثم جاء رفض يوسف للخروج من السجن الا بعد اثبات براءته ليجعل الملك يقوم بنفسه بالتحقق من ملابسات الحادث الذى مضى عليه سنوات . ولذلك فالملك يستدعى النسوة ويحقق معهن ويبدأ التحقيق باتهامهن بأنهن اللاتى راودن يوسف عن نفسه ، أى يبدأ التحقيق باتهامهن بدلا من اتهام يوسف ، أى انه من البداية نصب نفسه مدافعا عن يوسف البرىء ، ولذا يعترفن ببراءة يوسف وتعترف امرأة العزيز أمام الملك بأنها المذنبة ، وبعد ذلك الموقف الفريد يمثل يوسف أمام الملك بعد أن استدعاه الملك للمرة الثانية فيستجيب بعد ان حقق رغبته فى تنقية صفحته واثبات براءته ، ودار بينهما الحديث الذى كان الملك يتوق اليه وهو القائل عن يوسف : ائتونى به استخلصه لنفسى . وبعد ذلك الحديث ازداد الملك اقتناعا بيوسف واعجابا بشخصيته فأحله المقامة السامية فى بلاطه وحينئذ يطلب يوسف بنفسه أن يكون مشرفا على خزائن المملكة لأن لديه الخبرة التى تمكنه من الاشراف عليها خلال السنوات الحاسمة القادمة .

تلك هى الحقائق التاريخية عن ملك مصر الهكسوس والتى نستخلصها من سورة يوسف[١٤]

□ □ □

ويقول مؤرخو مصر القديمة بأن الهكسوس لم يعاملوا المصريين الا بالعنف والقسوة ، ولكن هذا الاتهام يعوزه الدليل الحاسم ، ولكن القرآن يعزز ذلك الرأى ..

فهناك شخص برىء دخل السجن ظلما ليستر فضيحة امرأة العزيز والنسوة المترفات فى المدينة ، وكل الذنب الذى وقع فيه يوسف عليه السلام انه تمسك بالعفة مع تهديدهن له بالسجن ان لم يستجب لنزواتهن

« ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين »(١٦)

وكان من الممكن ان ينسوا يوسف فى السجن فيظل فيه الى ان يموت لولا أن مسار الأحداث اتجه الى رؤية الملك والتداعيات بعدها ..

ومن ذلك نفهم ان الطبقات الفقيرة فى مصر كانت تدفع فاتورة الترف والانحلال الذى تعيشه الطبقة الحاكمة من الهكسوس وحين تمسك يوسف بعفته ولم يرضخ لنزوات امرأة العزيز ونساء الطبقة الراقية دفع الثمن من حريته وكان ممكنا ان يبقى فيه الى نهاية عمره

ونلمح موقفا آخر يتجلى فيه ظلم الهكسوس للمصريين فى قصة صاحبى يوسف فى السجن .

وأحدهما خباز والآخر الساقى ، وقد دخلا السجن مع يوسف فى نفس الوقت . ولابد ان تؤسس هذه الزمالة بينهم صداقة

« ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما انى ارانى أعصر خمرا وقال الأخر انى ارانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين . . »(١٧)

لقد رأى كلاهما رؤية مستوحاة من مهنته الأصلية فالخباز رأى انه يحمل فوق رأسه خبزا تاكل الطير منه ، والساقى رأى انه يعصر خمرا . وتداعيات الاحداث تنبئنا بأنهما ينتميان لطبقتين مختلفتين ، فالساقى الذى حظى بعفو الملك لم يلبث أن أصبح ساقيا للملك واشد الناس قربا منه حتى انه يشترك فى مداولات الملك مع الملأ ، ولأنه من الطبقة العليا فأنه بمجرد العفو عنه وخروجه من

السجن نسى يوسف ووعده ليوسف بأن يحدث الملك فى قضيته وهو الذى يعرف ان يوسف مظلوم وان الملك الذى يراه كل يوم ويستطيع الحديث معه متى شاء ـ يمكنه أن يرفع الظلم عن يوسف البرىء . المتهم فى شرفه زورا .

وانشغل الساقى بهموم الطبقة العليا وحياة القصور ونسى ذكريات السجن والسجين المظلوم الذى كان يستضىء به فى ظلمات السجن ، ولم يتذكره الا عندما اقتضت مصلحة الملك ذلك عندما عجز الملأ عن تفسير الرؤيا

« وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون . . »(١٨)

والذى يعنينا هنا أن الساقى الذى ينتمى للطبقة الحاكمة قد خرج من السجن ووجد وظيفته فى البلاط بجانب الملك ..

هذا بينما الخباز المسكين يلقى حتفه مصلوبا . والخباز بحكم مهنته لابد أن ينتمى للطبقة الشعبية ، والمفهوم ان جريمته قد لا تتعدى السرقة مما تقع عليه يداه من دقيق وخبز ، وذلك مايعكسه المنام الذى رآه وهو يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ، أى انه جوزى بسرقته الخبز فصلبوه بسبب ذلك ..

وقد كان السجن هو المرحلة الأولى التى مر بها الخباز المسكين قبل أن يصلب ، ويبدو أن السجن كان ذا أهمية خاصة فى تاريخ مصر القديمة فكلمه السجن ومشتقاتها لم ترد فى القرآن الكريم الا فيما يخص الاحداث الخاصة بمصر ..

وامرأة العزيز تهدد يوسف بالسجن امام زوجها

« قالت ماجزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أوعذاب اليم . »

وتهدده بالسجن أمام النسوة

« .. ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن
وليكونا من الصاغرين . »

ويرضى يوسف بالسجن

« قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه . »

وتظل رابطة السجن قوية فى نفس يوسف فيخاطب رفيقيه بقوله

« ياصاحبى السجن . »

وحتى بعد أن اصبح يوسف عزيز مصر وله فيها مطلق السلطات فان ذكريات السجن ظلت تلاحقه . وهو فى تمام النعمة يقول

« وقد أحسن بى اذ أخرجنى من
السجن »

وارتبط السجن بالعذاب الجسدى والنفسى وذلك ماتلحظه فى قول امرأة العزيز

« الا ان يسجن أو عذاب اليم »
« ليسجنن وليكونا من الصاغرين . » .

ويكفى فى قسوة السجن ان يوسف قال للساقى الذى تنبأ له بالخروج

« أذكرنى عند ربك »

ونسى الساقى فلبث يوسف

« فى السجن بضع سنين . »

وظل السجن المصرى مرعبا بعد يوسف . ففى قصة موسى نرى الفرعون يهدد قائلا

« لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من
المسجونين . . »(19)

والى جانب الملك الهكسوسى نلمح وظيفة سياسية أخرى رفيعة المنزلة وهى « عزيز مصر » وجاء هذا اللقب مرتين فى حديث القرآن عن المرأة التى راودت يوسف عن نفسه وهى امرأة العزيز وجاء مرتين وصفا للمكانة التى احتلها يوسف بعد ان مكن الله له فى الأرض .

لقد عبر القرآن الكريم عن تخاذل شخصية عزيز مصر الذى تربى يوسف فى بيته فجعله يتوارى خلف شخصية زوجته اللعوب

« وقال نسوة فى المدينة أمرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . . » « وقالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق . . »

وعبَّر القرآن الكريم عن قوة شخصية يوسف حين تولى هذا المنصب بجداره فقد قام يوسف بأعباء المنصب الى درجة ان اخوته حين دخلوا عليه لم يعرفوه بينما عرفهم

« وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . »

وقد أخذتهم هيبة يوسف فأخذوا يرجونه حين اخذ أخاه

« قالوا يأيها العزيز ان له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه »

ثم حين رجعوا له قالوا خاضعين

« يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين . »(٢٠)

ومن خلال المهام التى قام بها يوسف تعرف ان منصب عزيز مصر

هو الاشراف الكامل على شئون مصر الزراعية والاقتصادية ، فبذلك المنصب مكن الله تعالى ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء . أو أن يوسف كان يشارك فى حكم المملكة ونلمح ذلك من قوله وهو يشكر ربه تعالى

« رب قد آتيتنى من الملك . »(٢١)

وكان المصريون فى عصر يوسف يقولون عنه باللغة المصرية القديمة « عزيز مصر » والى عهد قريب كان من ألقاب التشريف أن يقال بالعربية التركية (عز تلو) وبالعربية الفصيحة « صاحب العزة . »

ونستفيد من النصوص القرآنية أن مصر فى عصر الهكسوس كانت لها حدود شرقية تقوم عليها بوابات وحراسة ترصد القادم والداخل . وذلك تطور هام فى الدولة المصرية القديمة يؤكد من أهميته ان الهكسوس وقتها حرصوا على الاشراف على الحدود المصرية الشرقية هذا مع ترحيبهم بالوافدين من أسيا بمثل مافعلوه بابناء يعقوب « اسرائيل » ، وقد كان دخول الحدود المصرية أمرا يستحق الاعداد والاستعداد .

نلمح ذلك من قول يعقوب لبنيه

« يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا
من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من الله
من شىء ان الحكم الا لله عليه توكلت
وعليه فليتوكل المتوكلون »

والتزم الأبناء بوصية ابيهم

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم
ماكان يغنى عنهم من الله من شىء
الا حاجة فى نفس يعقوب قضاها . . »

-ونفهم من ذلك ان الحدود المصرية الشرقية كانت لها بوابات متفرقة ، وان عليها حرسا شديدى الملاحظة ، وقد خشى يعقوب عليه السلام أن يرتابوا فى ابنائه فيحدث لهم مالا تحمد عقباه فنصحهم بما يستطيع ولم يبق عليه الا أن يتوكل على الله ويسلم أمره اليه .

وحين قدم يوسف نفسه لأخوته وقال لهم

« وأتونى باهلكم أجمعين »

سافر ينتظرهم عند الحدود المصرية الشرقية ، وهناك استقبل يوسف أبويه وأهله وساروا معه الى مصر أمنين حيث لم يعد مجال للخوف من يعقوب على أبنائه

« فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه
وقال ادخلوا مصر ان شاء الله
آمنين . . »

أى كانوا يطلقون على العاصمة اسم (مصر) . لقد كانت الحدود المصرية الشرقية نقاط حراسة ضد البدو وعصاباتهم ، وكان لابد أن يحوط الشك بكل من يأتى من الصحراء .

وقد حمد يوسف ربه فقال :

« وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن
وجاء بكم من البدو . . »[٢٢]

أى جاءوا بسلام ودخلوا من بوابات الحدود المصرية الى مصر - أم الدنيا - بسلام أمنين ، وبذلك عاش بنو اسرائيل - أويعقوب - فى مصر واستمروا فيها الى أن خرجوا مع موسى .. وبنواسرائيل لاعلاقة لهم باليهود البيض فى دولة اسرائيل اليوم الذين يمثلون فى الحقيقة سلالة قبائل الخرز التى اعتنقت اليهودية فى العصور الوسطى ثم هاجرت لأوربا ثم كونوا فى العصر الحديث عماد دولة اسرائيل الراهنة

ثالثا : لمحات قرانية عن النظام السياسى المصرى فى عصر موسى عليه السلام

بين ملك الهكسوس وفرعون مصر :

من القرآن نلمح عناية النظام الهكسوسى فى مصر بابناء يعقوب (اسرائيل) فقد استقدمهم أخوهم يوسف بنفسه ودعاهم وهو على الحدود لأن يدخلوا مصر آمنين . ومن المنتظر أن ينعم ابناء اسرائيل (يعقوب) برعاية ملوك الهكسوس بعد عصر يوسف . فالهكسوس وابناء اسرائيل ينتمون معا الى منطقة خارجية أتت الى مصر من الشرق ، وهم معا أجانب يتمتعون بكراهية الوطنيين المصريين .

وفى التوراة الموجودة لدينا نصوص عن اهتمام ملك الهكسوس بأسرة يوسف . وتقول

وسكن اسرائيل فى ارض مصر فى ارض جاسان وتملكوا فيها وأثمروا وكثروا جدا . وعاش يعقوب فى أرض مصر سبع عشرة سنة

وسكن يوسف فى مصر هو وبيت أبيه

ومات يوسف وكل جميع اخوته وجميع ذلك الجيل وأما بنواسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم "(٢٣)

والتاريخ المصرى ينبئنا بأن المصريين مالبثوا أن ثاروا على حكم الهكسوس وأسسوا الحكم الوطنى الفرعونى بعد أن دحروا الهكسوس الى ما وراء الشام . ومن المنتظر بعدها أن تتبدل أحوال بنى اسرائيل من العز الذى كانوا يتمتعون فيه فى عصر الهكسوس الى الاضطهاد بعد مجىء الحكم المصرى الفرعونى الذى لابد أن ينتقم من كل اعوان الحكم الاجنبى .

تقول التوراة

« ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فقال لشعبه هو ذا بنواسرائيل شعب اكثر وأعظم منا هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون اذا حدثت حرب أنهم ينضمون الى اعدائنا ويحاربوننا . »[٢٤]

أى كان خوف فرعون منهم هو سبب اضطهاده لهم .

ويقول رب العزة فى القرآن

« ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين . »[٢٥]

وهنا رأى جديد نلمحه من خلال الآية الكريمة . اذ اننا أمام فرعون - وليس مجرد ملك - وهو فرعون أوتى أسباب القوة

« علا فى الارض »

وقد استضعف فريقا من السكان وهم بنواسرائيل ومارس عليهم جبروته وفرض عليهم نظريته الخاصة فى تحديد النسل بأن يقتل الذكور وأن يستبقى الاناث

والذى نفهمه من عشرات الآيات الأخرى التى تحدثت عن قوة فرعون وجبروته ان ذلك الطاغية لم يكن يخشى قوة بنى اسرائيل اذا انضموا الى عدوه ضده ، ولكن كانت له أسبابه الخاصة فى اضطهاده لهم ، وهى أسباب تمتزج فيها الرغبة فى الانتقام من تعاونهم السابق مع الهكسوس مع الرغبة فى التخلص منهم باعتبارهم عنصرا غريبا مختلفا عن المصريين الذين اعتبروه إلها لهم بينما يعتبره أولئك الغرباء المستضعفون مجرد ملك لايتمتعون فى عهده بامتيازات

من هو فرعون موسى ؟ .

وهناك اختلاف فى تحديد شخصية فرعون موسى مابين تحتمس الأول وسيتى الأول وامنحوتب الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث . وهناك من يرى ان الفرعون الذى اضطهد بنى اسرائيل هو رمسيس الثانى أما فرعون الذى غرق فهو ابنه منفتاح .(٢٦)

وذلك الاختلاف فى تحديد شخصية فرعون موسى يقع فى فترة زمنية تقدر بحوالى ثلاثة قرون ، مابين تحتمس الأول (١٥٣٩ ـ ١٥٠١) ق. م . الى خروج بنى اسرائيل من مصر فى حوالى (١٢١٣) ق.م.

ولم يستطع المؤرخون الوصول الى تحديد دقيق لفرعون موسى فى هذه القرون الثلاثة .

لقد كان الفراعنة معروفين بعدم تسجيل النكسات والهزائم فى نفس الوقت الذى ينسب كل فرعون أمجاد السابقين لنفسه وذلك يمثل عامل شك كبير فى صدق المصادر التاريخية الفرعونية خصوصا عندما نحاول أن نتعرف منها على حقيقة الكارثة التى حدثت فى عصر موسى ونتج عنها غرق الفرعون وجنده فى البحر .

والأكثر من ذلك ان القرآن الكريم يثبت حقيقة تاريخية لم ترد فى كتابات المؤرخين وهى ان ابناء اسرائيل قد ورثوا فرعون فى حكم مصر بعد انهيار النظام الفرعونى وغرق فرعون وقومه أو جنده .

يقول تعالى

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم
كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين .
وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون
مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها
وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى

اسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع
فرعون وقومه وماكانوا يعرشون »(٢٧)

أذن ورث بنواسرائيل مشارق الأرض ومغاربها بعد آن دمرالله فرعون وآثاره وان ذلك استمر الى وقت قصير انتقلوا بعده الى الشرق .

ويقول تعالى عن فرعون وآله

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع
ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين
كذلك وأورثناها قوما آخرين . »

واولئك القوم الآخرون هم بنواسرائيل فتقول الآيات الأخرى من سورة الشعراء .

« فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز
ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى
اسرائيل »(٢٨)

آى ورث بنواسرائيل جنات فرعون ومزارعه وكنوزه واملاكه وملكه . حينا من الزمان .

وذلك كله يكفى لأن تتجاهل المصادر التاريخية الفرعونية تسجيل ذلك الحدث الجلل الى آن ياتى القرآن الكريم ويثبته . ولكن يبقى السؤال مطروحا ، من هو فرعون موسى وهل فى القرآن مايشير الى ذلك ؟ .

وفى البداية فأن المنهج القرآنى كما اسلفنا ـ هو عدم تحديد الاشخاص . بل وتحويل الشخص المعروف باسمه الى رمز كى يصبح عبرة لكل زمان ومكان ، ولذلك تحول (آبولهب) مثلا و (آزر) الى رمز للسقوط والتردى حتى لوكان ذلك الخاسر من اقارب النبى وبذلك تسقط دعاوى النسب الشريف التى تعطى حصانة لصاحبها

« وفرعون » هو فى حد ذاته لقب سياسى وليس اسما شخصيا ، وقد اكتفى به القرآن الكريم رمزا لكل حاكم ظالم مدع للألوهية يسير الى نهاية الشوط فى حرب الله تعالى فيلقى جزاءه .

ومع ذلك تبقى بعض الاشارات القرآنية عامل توضيح وترجيح فى تحديد شخصية فرعون موسى .. ففى القرآن مايرجح ان فرعون موسى شخص واحد هو الذى اضطهد بنى اسرائيل وهو الذى طاردهم الى أن غرق بجنوده فى البحر ، خلافا لما يقوله بعض المؤرخين .

نفهم ذلك من قول بنى اسرئيل لموسى

« قالوا أوذينا من قبل ان تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض . »

وقوله تعالى عن فرعون وملائه

« ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحى نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون . »

إلى ان يقول تعالى

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعونْ وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »

والسياق القرآنى يقتضى ان يكون فرعون هو نفسه الذى اضطهدهم وهو نفسه الذى لقى عقوبته ، ومعه وزيره هامان وجنده .

وفرعون الذى تربى موسى فى كنفه تعرف على موسى حين جاءه نبياً فقال له

« ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين »(٣٠)

وليس منتظرا آن يكون فرعون موسى هو رمسيس الثانى الذى دحر الجيثيين فى قادش بالشام وارغمهم على عقد أول معاهدة فى التاريخ .

وذلك لسبب بسيط ، آن موسى حين قتل المصرى وهرب من فرعون اتجه الى مدين بالشام ، فكيف يهرب موسى من فرعون الى فرعون ؟

اذ آن رمسيس الثانى قد أحكم سيطرته على الشام فكيف يهرب موسى من يد فرعون اليمنى الى يد فرعون اليسرى ؟

المفهوم ان يعيش فى عصر رمسيس آخر يكون خلفا لرمسيس الثانى وأضعف قبضة منه على الشام حتى يحس موسى بالأمن وهو يستقر هناك مختفيا عن الأعين .

والمفهوم ان يرث ذلك الفرعون عظمة رمسيس الثانى وأن يكون له من القوة الداخلية مايمكنه من شغل وقت فراغه بتحديد النسل لطائفة مستضعفة فى شعبه ، ويستخدم جيشه فى التدريب على حرب داخلية مضمونة النصر ضد المستضعفين . علاوة على ما انشغل

به من عقد المؤتمرات والقاء الخطابات ـ على نحو ما سنعرض له .
ولو كان منشغلا بحروب خارجية ما التفت الى الداخل بهذه الطريقة ، علاوة على انه لم يرد فى آثار فرعون موسى انه دخل فى حرب خارجية .
لقد تحدث القرآن الكريم عن بنى اسرائيل فى عصر موسى وهم يرفضون دعوته لدخول فلسطين لأن فيها (قوما جبارين) وأولئك القوم لهم دولة ذات حدود وأبواب

« قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون »[٣١]

والمعنى المقصود انه كانت هناك دولة قوية فى الشام أرهبت بنى اسرائيل ، وليس متصورا ان تقوم مثل هذه الدولة فى يوم وليلة ، وانما المنتظر ان يكون بناؤها قد توطد بعد انهيار النظام الفرعونى .
ومعناه ان فرعون موسى الذى انشغل ببنى اسرائيل قد سمح بوجود كيانات مستقلة استقلالا ذاتيا فى الشام أتيح لها أن تقوى وتتوطد بعده .
وبسبب تقاعس بنى اسرائيل عن الجهاد حكم الله عليهم بأن يظلوا تائهين فى الصحراء أربعين عاما حتى ينقرض ذلك الجيل المتهالك ويأتى جيل آخر ، ومات موسى فى فترة التيه كما يذكر كاتب التوراة[٣٢] ، وبعد موسى بعث الله نبيا الى بنى اسرائيل وتم فى عهده تعيين جالوت ملكا وهو الذى هزم طالوت ، وكان داود هو الذى قتله[٣٣] . وتأسس بذلك ملك بنى اسرائيل .
والذى نفهمه ان الامبراطورية المصرية تقلصت الى حدود مصر الطبيعية بعد عصر فرعون موسى الى حد ان قامت دولة بنى اسرائيل الأولى على حدودها الشرقية .
وذلك يرجح ان يكون فرعون موسى المقصود من خلفاء رمسيس الثالث الذى قتلته احدى زوجاته .

لقد تعاقب بعد رمسيس الثالث ثمانية من الملوك كل منهم يحمل اسم رمسيس ولا نسمع عنهم كثيرا[٣٤] على حد قول مؤرخى مصر القديمة . وأحدهم هو المرشح لأن يكون فرعون موسى .

ويعزز ذلك ان مصر قد دخلت فى دور من الضعف والانقسام والانهيار وتولى السلطة الليبون والنوبيون وفراعنة ضعاف ثم تولى الاشوريون ثم الفرس ، ومعناه ان فرعون مصر فى عصر موسى هو آخر الفراعنة العظام وقد لقى مصيره فى اليم وحقت اللعنة على حلفائه الذين يسيرون على منواله .

وذلك ما أثبته القرآن ، يقول تعالى

« وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما . »[٣٥]

استجاب الله لدعوة موسى وهارون فطمس على أموال الفراعنة واذاقهم العذاب الأليم واذهب ملكهم ، وذلك ماحدث فعلا ومايمكن ان يحدث اذا ظهر فى التاريخ المصرى فرعون يدعى الالوهية ويقول (أنا ربكم الأعلى) .

□ □ □

فرعون موسى : ملامح شخصيته

الوهية فرعون هى السمة البارزة فى شخصيته والتى استمد منها سلطانه المطلق والتى من أجلها اضطهد بنى اسرائيل ولهم عقيدتهم التى ليس فيها عبادة الفرعون .

ولقد فرض الفرعون مراسم تأليهه على بنى اسرائيل ، واستغرب فرعون و آله من دعوة موسى كيف يدعوه للحق بينما قوم موسى مجبورون على عبادة الفرعون ، نفهم ذلك من قولهم

« فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون »

ولا ريب ان فرعون افتخر بفعله ذلك أمام موسى وامتن عليه بأن قوم موسى يدينون له بالعبودية ، ولذلك قال له موسى

« وتلك نعمة تمنها علىَّ ان عبَّدت بنى اسرائيل . ؟ »(٣٦)

وأدت دعوة موسى لأن يخشى فرعون على عقيدته التى يقوم على أساسها سلطانه فقال للملأ

« انى أخاف ان يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . »

وعقد فرعون مؤتمرات شعبية ثم فيها حشد الجماهير ووقف بينهم يعلن الوهيته العظمى

« فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى . »

وواصل فرعون مسيرة التطرف الدينى فقال فى احدى تصريحاته

« يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى إله موسى . . »(٣٧)

وباعتباره إلها معبودا كان المصريون فى عصره يذكرون اسمه تبركا به عند القيام بأى عمل هام .

ونفهم ذلك من فعل السحرة حين افتتحوا المباراة بذكر اسم فرعون ، يقول تعالى عنهم .

« فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون »(٣٧)

وما حكاه القرآن اكتشفه علم المصريات اذ يسجل ان المصريين فى المباريات كانوا يحرصون على ذكر اسم الفرعون كان يقول أحدهم لرفيقه أثناء المبارزة

« إعلم تماما انك أمام فرعون له الحياة والصحة والقوة ، مولانا الطيب »

وحين يلقى أحدهم فى المصارعة برفيقه يقول له

« سوف أرميك ممزق الاضلاع أمام فرعون »

وفى أثناء التحطيب - المباراة بالعصى - يصرخ أحدهما

« ان فرعون معى ضدك فله الصحة والحياة والقوة ، انه مولاى . »(٣٨)

ويقول تعالى يصف موقف فرعون حين آمن السحرة بموسى

« قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم » »(٣٩)

اى ان فرعون يعتبر نفسه مالكا للقلوب والافئدة لاينبغى ان تؤمن الا بعد اذنه ، ومعناه ان فرعون بسلطانه الدينى والزمنى السياسى اعتبر نفسه يملك الأرض والبشر ، وهى قمة التطرف فى الاستبداد .

□ □ □

ويذكر مؤرخو الحضارية المصرية - القديمة - أن عصر الدولة الحديثة - خصوصا الرعامسة - شهد تركيز السلطة فى يد الفرعون ، وبدآ ذلك فى عهد أحمس ، فقد تآمر على أحمس بعض أمراء الاقطاع لذا عمل أحمس على الاستحواذ على جميع أملاك النبلاء وضمها لأملاك الفرعون .

وبذلك استحدثت الاسرة ١٨ تركيز الثروة والسلطة والقوة تركيزا فعليا فى يد الفرعون مما ساعد على تكوين جيش قوى منظم متطور ، وبذلك انتهى عصر الأسرات الاقطاعية الحاكمة فى الأقاليم وانتهت اللامركزية فى الادارة ، وسيطرت على البلاد حكومة مركزية قوية(٤٠) .

وما أسهب المؤرخون فى شرحه عبر عنه القرآن الكريم بايجاز واعجاز حين يذكر خطبة فرعون فى قومه يبين استحقاقه بالالوهية والسلطان المطلق

« ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس
لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من
تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ »[٤١]

فالآية الكريمة تعبر عن تركيز السلطة فى يد فرعون بقوله :

« أليس لى مُلك مصر ؟ »

ثم تضيف الآية عنصرا آخر يبين الخلفية الجغرافية السياسية للبيئة المصرية وهو قوله

« وهذه الأنهار تجرى من تحتى . . »

فالنيل هو الأساس الذى بنى عليه الفرعون استبداده السياسى وملكيته لمصر .

فالنيل يشق الصحراء ويتجمع المصريون على شاطئيه طلبا للاستقرار والزراعة والهدوء .

ونهر بهذا الطول يستلزم سلطة مركزية تقوم على مراعاة الرى والصرف والزراعة وحراسة الوادى من الطامعين ، وأبناء النيل على ضفافه يتعودون على السكون والهدوء والاستمتاع بخيره وجناته ومناخه الرائع ، وهم على استعداد للصبر على جور الحاكم الفرعون طالما يتحمل عنهم مشقة الاشراف على الداخل والدفاع عنه .

لقد استمد الفرعون من النيل وسيطرته عليه أساس سلطانه وافتخر بذلك فقال :

« أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار
تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ »

فالذى يملك النيل يملك مصر معه ، ومصر كما يقال « هبة النيل »

□ □ □

وتكاتفت عوامل الجغرافيا والتاريخ والسياسة لتجعل من استبداد فرعون المطلق ملمحا مميزا من ملامح الشخصية المصرية القديمة وبدونه فلاوجود لمصر .

وأصبح الرأى المستقل المخالف لمنطق فرعون تهديدا للنظام وانذارا بانهياره مما يستلزم معه ضرورة الاتحاد بين فرعون والملأ ضد ذلك الرأى النشاز ، ومن هذا المنطلق نظر فرعون وآله الى النغمة الجديدة التى جاء بها موسى ، اعتبروها تهديدا خطيرا لكيانهم ووجودهم

« قال اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ »

وكرر فرعون مقالته للملأ

« قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ »

وكرر الملأ فيما بينهم نفس المقالة

« فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا ان هذان لساحران يريدان ان يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم أئتوا صفا وقد افلح اليوم من استعلى »

وحتى بعد أن أعلن السحرة ايمانهم انبهارا بما شهدوه من موسى قال لهم فرعون

« ان هذا لمكر مكرتموه فى المدينة
لتخرجوا منها أهلها »(٤٢)

فمنطق فرعون والملأ الذى يعيش معه وبه آن الأرض ارضهم وآن سلطانهم على هذه الأرض يقوم على اسس دينية وفكرية تتجمع كلها لتؤكد الرأى الواحد للفرعون ، وان الرأى الآخر هو تهديد لهذا النظام وكل رموزه وأعوانه .

ومن هذا المنطلق فان فرعون فى حواره لايطيق المعارضة ، وهو إن كان يقول للملأ

« ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم
من أرضكم بسحره فماذا تأمرون »

فلا يعنى ذلك انه يقبل مبدأ المشورة أو انه يحكم بالديمقراطية ويقبل الاختلاف فى الرأى ، اذ انه يعرف ان الملأ الذين معه قد ارتبط وجودهم بوجوده ، والأمر الحقيقى ليسوا هم مصدره ، وهو حين يقول لهم « فماذا تأمرون » لايعنى ان لهم الأمر ، بل هو يعطيهم الفرصة لكى يقولوا له مايريد الاستماع له .

ولذلك فان اقتراحاتهم فى النهاية هى نفس ما اقترحه الفرعون من الدخول فى مباراة مع موسى .

ان فرعون حين يدير حوارا مع ملائه ينتظر منهم ان يفكروا فى أحسن طريقة يتملقونه بها ولذلك فهو عن طيب خاطر يجعلهم اصحاب الأمر والنهى ، أما اذا اشتم رائحة غريبة فانه سرعان مايعود الى طبيعته الدكتاتورية ، وقد حدث ذلك حين قام واحد من الملأ هو فى الحقيقة من آل فرعون ولكن آمن بالحق وكتم ايمانه ، ومن منطلق مكانته اخذ يحاور الفرعون فلم يحتمل الفرعون ذلك الحوار المستقل ، كان الرجل المؤمن يقول

« يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى
الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن

جاءنا ، قال فرعون ما أريكم الا ما أرى
وما أهديكم الا سبيل الرشاد »(٤٣) .

وهكذا اسفر فرعون عن حقيقة الحوار الذى يجرى مع الملأ . فقال فى النهاية انه لايريهم الا ما يراه بعقله ولا يدلهم الا على الرشاد .

□ □ □

والشخصية المصرية التى تميل للسخرية والتندر كانت تغلب أحيانا على فرعون موسى وهو يحاور موسى وهو فى سلطانه وبين اعوانه الا انه سرعان مايعود للجد بعد الهزل اذا تطرق الحوار الى الدين ، دين فرعون وتأليهه ـ حينئذ تتبدل السخرية بموسى الى تهديد له .

والقرآن الكريم يرسم لوحة حية لذلك الحوار

« قال فرعون ومارب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض ومابينهما ان كنتم موقنين . قال لمن حوله الا تستمعون ؟ قال ربكم ورب أبائكم الأولين . قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلٰهًا غيرى لاجعلنك من المسجونين »(٤٣)

ان المصريين القدماء كانوا يعرفون الله ـ وذلك ماسنعرض له فيما بعد ـ ومعنى ذلك أن سؤال فرعون لموسى « ومارب العالمين » كان مقصودا به السخرية والتندر ، وحين اجابه موسى يصف رب العالمين بأنه رب السماوات والأرض قال فرعون لمن حوله مستهزئا « الاتستمعون » ولابد أن الضحكات ارتفعت من هنا وهناك تنافق

فرعون الا ان موسى رد على استهزائهم بقوله لهم عن رب العالمين

« قال ربكم ورب ابائكم الأولين »

وحوّل فرعون السخرية لتنال من موسى فوجه حديثه للملأ

« قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون »

ورد موسى بنفس التحدى يوجه حديثه للجميع

« قال رب المشرق والمغرب ومابينهما ان كنتم تعقلون »

أى ان موسى يتهمهم بعدم التعقل ويدعوهم لأن يكونوا عقلاء ليعرفوا رب العالمين ، وبذلك وصل الحوار مع فرعون الى نقطة النهاية فتحول الى تهديد باستخدام القوة

« قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لاجعلنك من المسجونين » .

ولم يتوقف فرعون عن السخرية بموسى فى مؤتمراته الشعبية ، ففى المؤتمر الذى قال فيه لقومه

« أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ »

كان يقصد عقد مقارنة بينه وبين موسى وفيها قال

« أم انا خير من هذا الذى هو مهين ولايكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين . »(٤٤)

أى عاب على موسى انه لايحسن النطق ووصفه بالمهانة ، وبالطبع فهو بالتالى يصف نفسه بالفصاحة والعزة .

ولكن اذا كان موسى عند فرعون بهذه الصفات فلماذا تنازل الفرعون الذى يعتقد الألوهية فى نفسه ورضى ان يعقد مقارنة بينه وبين موسى ؟ ان فرعون يريد أن يذكر قومه بمكانته وهو الذى يملك عندهم كل شىء فى مقابل موسى الذى لايملك شيئا .

وهذا التأكيد والتذكير يحتاج اليه فرعون لأن ملكه يقوم على أسس دينية وفكرية مكانها فى الحقيقة فى اعتقاد الناس فقط .

فطالما هم يعتقدون احقيته فى الألوهية والسلطان فان مركزه السياس والدينى فى أمان .

وقد جاء موسى بدعوة دينية نقيضة فيها كل الخطر على الأسس الدينية والفكرية التى يقوم عليها ملك فرعون .

وحتى لاتنتشر دعوة موسى بين قوم فرعون لابد من الاستخفاف بموسى والاستهزاء به ليسقط فى أعين المصريين وتسقط معه دعوته .

وهكذا استجاب آل فرعون وقومه فاستهزأوا بموسى ودعوته ، يقول تعالى عنهم

« فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون . »(٤٤)

لقد تحكم الفرعون فى عقلية القوم ، لذلك فأن القرآن بعد ان قص مؤتمر فرعون الذى قال فيه اليس لى ملك مصر قال تعالى يعقب على قوم فرعون

« فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين »(٤٤)

□ □ □

وتاكدت النزعة الدكتاتورية عند فرعون اكثر بوجهه العسكرى ، يقول مؤرخو الحضارة المصرية القديمة ان الفرعون فى عصر الرعامسة كان رأس الدولة وقائد الجيش الذى يقود الجنود ويتقدمهم فى ساحة الوغى والـذى يرأس كثيـرا المجالس الحربية(٤٥) .

والقرآن الكريم يربط فرعون موسى بهذه الصيغة العسكرية ويجعله قائدا للجنود ، ويجعل الجنود فى اثره دائما يقول عن مطاردته لبنى اسرائيل « فاتبعهم فرعون وجنوده » ويقول عن زهوه العسكرى « واستكبرهو وجنوده فى الأرض بغير الحق » وكان هامان قائد الجيش والوزير الاكبر لفرعون تعرف ذلك من قوله تعالى

« ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون »

« ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »

ويقول عن نهاية فرعون مع جنوده

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . »

ووصف فرعون بأنه جندى محارب فقال :

« واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون »

وقال :

«هل اتاك حديث الجنود . فرعون وثمود »(٤٦)

□ □ □

أتباع فرعون :

بعد أن قضت الدولة الحديثة منذ عهد أحمس على أمراء الاقطاع المحليين نبتت ارستقراطية جديدة وهم الموظفون الملكيون الذين وصلوا الى قمة النظام الادارى والعسكرى ، وكافأهم الفرعون بالهدايا والمنح ، وكان فرعون يملك الأرض ويقوم الفلاحون باستئجارها وزراعتها لصالح التاج .(٤٧)

وأولئك هم الملأ الذى تحدث عنه القرآن وربطهم بفرعون وجعلهم قمة الاتباع أو قوم فرعون فقال عنهم

« وقال الملأ من قوم فرعون » .

وقد ذكر القرآن شخصيتين هامتين من ملأ فرعون هما هامان وقارون .

ويبدو أن هامان كانت له سلطة حربية بجانب سلطته المدنية . نفهم ذلك من قوله تعالى :

« ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين »

فنسب الجنود لهامان وفرعون معا ، اما عن سلطته المدنية فتتضح من تكليف فرعون له بأن يبنى صرحا

« وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب »

« . . فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى . »(٤٨)

أما قارون فقد ورد ذكره فى موضعين فى القرآن مرتبطا بفرعون وهامان على انه من كبار اتباع فرعون الذين كذبوا بموسى

« وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات »

« ولقد أرسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين الى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب » :

ويفصل القران قولهم - ومنهم قارون بالطبع -

« فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا ابناء الذين امنوا معه واستحيوا نساءهم وماكيد الكافرين الا فى ضلال . . »(٤٩)

وفى موضع آخر يقول تعالى عن قارون

« ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم .

ومعناه ان قارون كان من بنى اسرائيل ولكنه بغى عليهم حين تآمر عليهم وأصبح من ملأ فرعون .

وحين جاءت دعوة موسى كان قارون فى خندق واحد مع فرعون وآله ضد موسى وقومه .

ويذكر القرآن ان قارون اتخذ نفس الموقف مع فرعون فاشار مع هامان بقتل ابناء الذين آمنوا مع موسى ، ولكن قارون - شأن كل خائن لقومه - آثر فى الوقت العصيب ان يمسك بالعصا من منتصفها فلم يشترك فى الحملة التى طارد فيها فرعون بنى اسرائيل وموسى .

وهكذا نجا من نهاية فرعون ولكن الى حين ، وبعد انهيار النظام الفرعونى كان قارون اعرف الناس بكيفية استغلال الموقف

واستثماره فاستحوذ على كل ثروات مصر فاغتر بالمال ونسى مصير فرعون وكان اشد منه قوة واكثر جمعا وأتباعا ، وأعرض قارون عن الاستماع للنصيحة وكاد ان يفتتن به الضعفاء فى الايمان ، وجعله الله عبرة لبنى اسرائيل حين خسف به الأرض وبكنوزه وداره (٤٩)

ولا ريب ان قارون كان يتمتع بذكاء نادر وصل به الى أن يلحق بملأ فرعون مع كونه من القوم المستضعفين ، ثم بعد انهيار فرعون ونظامه تمكن بذلك الذكاء من الاستحواذ على الثروة لنفسه وحين نصحه قومه بأن يتصرف فى المال وفق مايرضى رب العزة قال لهم :

« انما أوتيته على علم عندى . »(٤٩)

وقد اغتر قارون بهذا العلم فاستحق نهايته المفجعة ولكنه كان يتكلم بنفس منطق آل فرعون وقد واجهوا معجزات موسى بالبحث عن كل ساحر « عليم » وفرعون كان يقدر هذه النوعية من العلم التى تعنى المهارة فى الخداع والدهاء ، وبهذه الموهبة تنفتح الأبواب لكى يصير أحدهم من بين الملأ المقرب للفرعون .

لقد اقترح الملأ على فرعون

« قالوا ارجه واخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم »

وحين جاء السحرة « العلماء » انتهزوا الفرصة ليلحقوا بطبقة الصفوة من ملأ فرعون ،

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين »(٥٠)

وحين خيب السحرة أمل فرعون فاعلنوا أمامه ايمانهم بموسى ورسالته كافأهم فرعون بالصلب وتقطيع ايديهم وأرجلهم من خلاف ، فالذى يقترب من فرعون ثم يناله غضب الفرعون لابد أن يتحمل

سوء العاقبة ، وذلك هو الدين الذى يعرفه كل الملأ الذى يحوم حول كل فرعون .

ان الوصول للدائرة الضيقة حول فرعون لاتسمح لأحد باختراقها الا لمن كان ذا موهبة خاصة فاذا ساء حظه جاء حتفه .

□ □ □

لقد جاءت كلمة الملأ مرة واحدة فى قصة يوسف حين طلب الملك الهكسوسى منهم ان يفتوه فى رؤياه ولم يجد منهم الا التكاسل والتثاؤب ، أما فى قصة موسى وفرعون فكانت كلمة الملأ تاتى مرادفة لكلمة فرعون تدليلا من القرآن على ان الملأ هم الامتداد الطبيعى للفرعون رأيه هو رأيهم ، ورآيهم هو رأيه ، بل ان كلمة « ملائه » و « وملائهم » لم تأت فى القرآن الا عن فرعون دليلا على ان فرعون قد امتلك اولئك الملأ الذين نسبهم القرآن له . .

وجاء كلمة (ملائه) ست مرات ، بينما جاءت كلمة (ملائهم) مرة واحدة فى قوله تعالى :

« فما آمن لموسى الا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم ان يفتنهم وان فرعون لعالٍ فى الأرض وانه لمن المسرفين »(٥١)

ومجيء كلمة الملأ مضافة الى ميم الجمع تعنى ان الملأ كانوا طبقات ودرجات ومجموعات ، آو مايعرف الآن بمراكز القوى التى تنشأ حول الحاكم المنفرد بالسلطة .

وحين قتل موسى ذلك الرجل المصرى وصل النبأ الى « الملأ » فتآمروا على قتل موسى ، ولاشك ان آولئك الملأ كانوا فى المستوى الأدنى الذى يشرف على مجريات الشارع المصرى فى العاصمة ، بدليل ان الأمر لم يصل الى فرعون فى حينه ، وأولئك الملأ أخذوا على عاتقهم ان يتآمروا على موسى ويقتلوه بأنفسهم ، وعلم بالأمر واحد من الرجال فى اطراف المدينة فجاء وحذر موسى .

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك من الناصحين »(٥٢)

لوكان أولئك الملأ من الطبقة العليا القريبة من أذن الفرعون لأسروا اليه بما حدث ولأصدروا حكم الاعدام على موسى واعتقلوه ونفذوا فيه الاعدام قبل أن يصل الخبر الى رجل يعيش فى حوارى العاصمة فيأتى ليحذر موسى .

□ □ □

لقد كان الملأ ـ أو زعماء قوم فرعون ـ طبقات ودرجات ، ولكنهم جميعا كانوا رهن اشارته فاتبعوا أمره فأوردهم التهلكة فى الدنيا وسيأتى يوم القيامة اماما لهم يتقدمهم الى النار .

وبهذا أخبر رب العزة

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود »(٥٣)

□ □ □

وللقرآن الكريم طريقة فريدة يوضح بها التجاوب فى الرأى بين فرعون وملائه وذلك بأن يسند الرأى الواحد مرة لفرعون ومرة أخرى للملأ ، وذلك يعنى أن الملأ حول فرعون يبحثون عن الرأى الذى يرضى هوى فرعون ليقولوه له .

واذا كان الرأى واحدا فى النهاية فمن الممكن ان ينسب لفرعون أو للملأ أولهما معا ، فالملأ فى الحقيقة هم امتداد الفرعون .

يقول تعالى :

« وقال الملأ من قوم فرعون اتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل ابناءهم ونستحى نساءهم . وانا فوقهم قاهرون . »

فالملأ هنا هم احرص من فرعون على ملك فرعون او هم ملكيون اكثر من الملك .

ويقول تعالى :

« فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم »(٥٤)

ان هذه النوعية من الحاشية الملكية تفرش الورود امام الفرعون فى طريقه للهلاك السريع . !!

□ □ □

لقد كان الملأ هم قادة الجند الفرعونى وكبار موظفيه فى العاصمة والأقاليم .

أما جند فرعون فهم قومه . أو القطيع الذى يتم حشده من كل مدائن مصر خلف فرعون وملائه . و (جند) فرعون او (قوم) فرعون هم الذين هرولوا خلف فرعون يطاردون معه موسى واستقروا فى قاع البحر .

ويقول تعالى عن (قوم) فرعون .

« فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين »

اذن اغرق الله (قوم) فرعون (أجمعين) . ويقول تعالى عن (جند) فرعون .

« واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لايرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . »(٥٥)

اذن غرق (جند) فرعون الذين هم (قوم) فرعون .

□ □ □

ويقول مؤرخ عصر الرعامسة ان الجنود لم يكونوا يتعلمون مهنة آخرى سوى مهنة حمل السلاح التى كانوا يتوارثونها وكانوا جميعا من ذوى الأملاك .(٥٦)

ومعنى ذلك اننا آمام نظام الاقطاع العسكرى حيث يقوم جيش الفرعون بالاشراف على زراعة الأرض التى تقسم على القادة والجنود، ويتم تسخير الفلاحين فى زراعتها فى مقابل مايقيم اودهم .

وقد استمر الاقطاع العسكرى الزراعى فى مصر فى فترات لاحقه كان آخرها فى العصر المملوكى (١٢٥٠ م - ١٥١٧ م) وعاش الاقطاع العسكرى فترات طويلة فى أوربا العصور الوسطى .

وكانت بدايته فى مصر فى عصر الرعامسة .. والقرآن الكريم يعطى أضواء على نظام الاقطاع العسكرى الزراعى الفرعونى ، ويظهر ذلك فى تكرار كلمة « حشر » فى افعال فرعون أى انه كان يحشد جنده واتباعه من كل مكان .

ويقول تعالى يصف نوعية الحشد العسكرى الفرعونى الذى يضم كل المدن المصرية والقرى الزراعية .

« وأوحينا الى موسى ان اسر بعبادى انكم متبعون . فأرسل فرعون فى المدائن

حاشرين . أن هؤلاء لشرذمة قليلون .
وانهم لنا لغائظون . وانا لجميع
حاذرون . فأخرجناهم من جنات
وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك
وأورثناها بنى اسرئيل .(٥٧)

اى ان فرعون أرسل منشورا الى قادة الجيش فى كل انحاء المدائن المصرية ليحشروا قواتهم ويسيروا بها الى فرعون ، وذلك المنشور يقول ان بنى اسرائيل شرذمة قليلة ولكنهم يسببون الضيق للفرعون وانه يحذرهم . وطبقا لذلك الأمر خرج كل الجنود من اقطاعاتهم الزراعية وكنوزهم التى يديرونها ويشرفون عليها ، ووصفها القرآن بقوله

« فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز
ومقام كريم . »

ويتكرر نفس المعنى فى قوله تعالى

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع
ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين
كذلك وأورثناها قوما آخرين . »(٥٧)

□ □ □

وفى القرآن الكريم اشارات الى نظم متفوقة فى الاتصال بين فرعون فى عاصمته وفرق جيشه فى سائر العمران المصرى القديم .

وعن طريق ذلك الاتصال المستقر والمستمر كانت كل فرق الجيش وكل قوم فرعون فى متناول يده فى اللحظة التى يريدها ويكفى انه جمع جنوده من كل الانحاء ولحق بموسى .

ويقول تعالى عن فرعون :

« قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم . فجمع السحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل انتم مجتمعون ؟ لعلنا نتبع السحرة أن كانوا هم الغالبين »(٥٨) . .

اذن ذهبت الرسل الى كل المدائن تجمع امهر السحرة وتنقلهم الى العاصمة فى وقت محدد :

ثم اندست مجموعات أخرى بين الجماهير تحثهم على حضور المباراة المرتقبة ، وحتى يزيدوا فى آثارة الجماهير لمشاهدة المباراة فانهم لايقطعون بفوز السحرة وانما يقولون « لعل السحرة يفوزون »

□ □ □

لقد قال موسى لفرعون « موعدكم يوم الزينة وان يحشر الناس ضحى » ويعرف موسى ان بمقدرة فرعون ان يحشد الجماهير فى نفس الموعد ، وهكذا تقول الآية التالية

« فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى . »(٥٨)

فالقرآن يصف اجهزة فرعون فى الاتصال والتأثير فى الجماهير بأنها « كيد » وهو أفضل تعبير عن الاجهزة السرية التى تخدم الحاكم المطلق .

□ □ □

إن من الطبيعى آن يكون للفرعون عملاء سريون وان كانت اشارات القرآن هى المصدر الوحيد ـ على ما نعرف ـ فى هذا الشأن ، وقد تتبع عملاء فرعون وجواسيسه كل أفراد بنى اسرائيل فى عصر موسى ، ولم يشعر بهم بنواسرائيل ، ولم يشعر موسى أو هارون بذلك النظام السرى الفرعونى الذى يعد عليهم انفاسهم .

وتطلب الأمر آن يوحى الله تعالى لموسى يحذره من اولئك الجواسيس ، وجاء ذلك الوحى قبيل اللحظة الحاسمة « ساعة الصفر » أى وقت هروبهم من مصر للشرق .

يقول تعالى

« وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون » « فأسر بعبادى ليلا انكم متبعون »(٥٩)

أى كان بنواسرائيل « متبعون » أى خلفهم جواسيس فرعون يتبعونهم حيث تحركوا .. ومع انهم تحركوا فى ظلمات الليل سرا فان البوليس السرى الفرعونى مالبث ان اكتشف السر وسارع بابلاغه الى فرعون وسرعان ما أرسل فرعون بالمنشور الذى يحشد به كل قواته من كل انحاء مصر

« وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين . : .»

ويبدو آن النظام السرى لفرعون كان يتكون من درجات مختلفة السرية .

ودليلنا على ذلك مانستشفه من قوله تعالى

« وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوءا

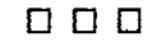
لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة
وأقيموا الصلاة . »[٥٩]

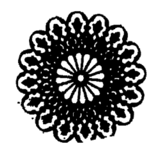
فالله تعالى يأمر بنى اسرائيل بأن يقيموا الصلاة فى بيوت سرية خاصة فى انحاء مصر . وقد جاءت هذه الآية بعد آيات آخرى تفيد خوفهم من اضطهاد فرعون الى درجة آن ذرية قليلة من بنى اسرائيل هى التى أمنت لموسى ووثقت به .

وتطلب الأمر آن يعتصموا بالله ويتوكلوا عليه ليستعينوا به فى كربهم أمام اضطهاد الفرعون .

ومعنى ذلك أن رموز الارهاب كانت تحيط ببنى اسرائيل من الشرطة العلنية ونصف السرية .

وبعد آن كانوا يصلون لله فى بيوت سرية فان الأعين الفرعونية شديدة السرية كانت تلاحقهم . وحذر الله موسى من ذلك النظام السرى الجهنمى . وفى النهاية كان مكر الله أسرع ، فأسرع فرعون بكيده الى حتفه .





هل يشمل تعبير « قوم فرعون » كل المصريين ؟

من القرآن نفهم ان قوم فرعون هم جنده الذين كانوا يحضرون اجتماعاته الشعبية والذين استحضرهم من كل الأنحاد ليطارد بهم خصومه فغرق وغرقوا معه تاركين خلفهم الاراضى الزراعية عامرة بما فيها من كنوز وجنات وعيون

ومعناه ان الفلاحين المصريين كان لاشأن لهم بما يجرى من السياسة الفرعونية وتطوراتها .

ولم يكن منتظرا أن يتركوا حقولهم ليحضروا مؤتمرا لفرعون فى العاصمة ، ولم يكونوا مؤهلين ليشتركوا فى أعمال عسكرية ..

كان الفلاحون من ضحايا الفرعون شأنهم فى ذلك شأن بنى اسرائيل فنجوا من الغرق ورضوا بتحمل الظلم - ولايزالون .

يقول مؤرخ عصر الرعامسة ان احقر المهن جميعا هى مهنة الزراعة التى يفنى فيها الفلاحون وطالما يتعرضون لأذى سادتهم ، ويستغلهم السادة ومحصلو الضرائب على السواء « وهذه هى حال رجل الحقول . تسجن زوجته ويؤخذ اولاده رهائن » .

وعندما تبدأ سنابل القمح فى الاصفرار يرى الفلاح سادته ومعهم عدد كبير من الكتبه والمسَّاحين والموظفين ورجال الشرطة يبدأون عملهم بمسح الحقل ثم يقدرون كمية الحبوب بالكيل ويكونون فكرة دقيقة عما يستطيع الفلاح أن يقدمه الى مندوبى الخزينة ، وبعد اتمام الحصاد يحضر الكتبة والكيالون فيستولون على المحصول ويعاقبون الفلاح الذى يخفى جزءا من المقرر عليه . ثم يتم تجميع المحاصيل كلها فى صوامع ضخمة على شكل أقماع السكر . »[٦٠] وما سجله مؤرخو عصر الرعامسة كان يتكرر فى العصرين المملوكى والعثمانى وربما حتى الآن ..

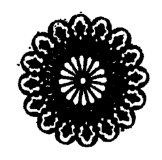
□ □ □

لقد اختار الفلاح المصرى ان يتحمل الظلم فاستحق الخلود الدنيوى مع النيل والتربة .. بينما دفع الفراعنة الظلمة الثمن من حياتهم وسلطانهم

« ولقد ارسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود . »(٦١)

لقد حكم فرعون موسى بالحديد والنار وكان الاضطهاد للضعفاء ابرز سياسته الداخلية .

□ □ □



سياسة الفرعون الداخلية :

من الواضح أن فرعون موسى كان متفرغا لشئونه الداخلية ، استخدم جيشه القوى فى إحكام سيطرته على مصر وفى إرهاب الضعفاء أو من لا يثق فى ولائهم .

ومن الواضح أن فرعان قد أجاد استخدام عناصر قوته من حشد قواتهواستنفار أعوانه وعقد المؤتمرات ، وتبدو من النصوص القرآنية مقدرته الفائقة على الحديث مع الجماهير وسيطرته عليهم وفهمه لطبيعة الشعب المصرى الذى قد ينسى الآلام حين يستمع الى نكتة يلقيها الفرعون الظالم وكل ذلك تصوره الآيات القرانية الكريمة

« ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ؟ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه »(٦٢)

وربما كان موسى يحس بمقدرة الفرعون على الحوار وفصاحته فى الجدل ، وخشى من التلعثم آمامه فطلب من الله آن يعينه بإرسال هارون معه ، وربما كانت إقامة موسى الطويلة فى مدين آضعفت لسانه عن النطق الفصيح باللغة المصرية ، كل ذلك مع خوفه من جبروت فرعون جعل موسى يقول فيما يحكيه القرآن

« قال رب أنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فارسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون » « قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » . « قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى . »(٦٣)

لقد وجد فرعون الظروف متاحة له كى يتطرف فى تقوية نفوذه الداخلى ومعه جيشه الذى يدين له بالولاء ومعه الملأ الذى يجتهد فى التفكير فيما يرضيه ويشبع غروره .

يقول تعالى عن نفوذ فرعون فى مصر

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم » .

وقد جعل القرآن من بنى إسرائيل طائفة من أهل مصر فقد عاشوا فيها قرونا قبل مجىء ذلك الفرعون .

وابان القرآن عن جانب من سياسة الفرعون وهى تقسيم أهل مصر الى طبقات

« وجعل أهلها شيعا »

وكيف انه اضطهد الضعفاء منهم ، ويعبر عن ذلك بلفظة موحية وهى

« يستضعف طائفة منهم »

فالفرعون الذى علا فى الأرض بجنده وقوته استضعف طائفة من شعبه ، (والسين والتاء) تفيد الطلب إذا دخلت على الفعل ، فإذا قلت (استكتب) أى طلب الكتابة ، وإذا قلت (استرحم) أى طلب الرحمة .

وهكذا فإذا (استضعف) فرعون بنى اسرائيل فمعنى ذلك انه دبر من الوسائل ما جعل بها بنى اسرائيل فى أضعف مكانة ، وتحول ضعف بنى اسرائيل الى قوة تضاف الى رصيد فرعون ، وبهذه القوة مارس فرعون اضطهاده لبنى اسرائيل .

وطالما (استضعف) فرعون بنى اسرائيل فقد تجرأ على قتل أبنائهم واستحياء نسائهم .

ولو كانوا أقوياء ما جرؤ على التفكير فى ذلك .

فالمستبد لا يضطهد إلا من يظهر فيه الضعف . وفرعون موسى حين لم يجد أحدا يقف أمامه ازداد غرورا بقوته وتطرفا فى ظلمه ، والمثل الشعبى يصور ذلك

« يا فرعون من فرعنك ؟ قال ما لقيتش حد يقف قصادى . . »

إن فرعون استهان ببنى اسرائيل - أى استضعفهم - ونفس الجرم وقع فيه بنو اسرائيل بعد سنوات حين (استضعفوا)

هارون فى غيبة موسى فعبدوا العجل ، واعتذر هارون لأخيه فقال

« إن القــوم استضعفــونى وكــادوا يقتلوننى »(٦٤)

□ □ □

لقد استمر اضطهاد الفرعون لبنى اسرائيل حتى بعد رسالة موسى

« قال موسى لقومه استعينـوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا »(٦٤)

بل ان رسالة موسى كانت حافزا على مواصلة الاضطهاد الفرعونى

« فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنـوا معه واستحيـوا نساءهم »(٦٤)

وأدى ذلك الاضطهاد الى خوف الأغلبية من بنى اسرائيل من الالتفاف حول موسى

« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وان فرعون لعال فى الأرض وانه لمن المسرفين »(٦٤)

ولكن هل لحق ذلك الاضطهاد بموسى وهو يتحرك ضد فرعون داخل أرض فرعون ؟

لقد كان موسى ـ عليه السلام ـ يتخوف أشد الخوف من العودة لمصر ومقابلة فرعون ودعوته للهداية واطلاق سراح بنى اسرائيل وتكرر قوله لربه فى الوحى انه « يخاف » من مواجهة الفرعون .

« قال رب إنى أخاف أن يكذبون .. ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون » « قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى انى أخاف أن يكذبون »

وحتى بعد أن أرسل الله هارون مع موسى ظل الخوف مسيطرا على الأخوين وشكيا ذلك لله تعالى فجاءتهما البشرى من الله انه معهما

« إذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى . . »(٦٥)

وبالتمعن فى الآيات الأخيرة نلحظ مدى بأس فرعون والخوف الذى زرعه فى القلوب ، ولكن الله تعالى أحاط موسى وهارون برعايته فأخاف منهما فرعون . ولقد فكر فرعون فى قتل موسى واقترح ذلك على الملأ لأن فرعون الرهيب (يخاف) من موسى أن يبدل دين قومه ، ولأول مرة يقف رجل من الملأ يعارض دعوة فرعون

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون

رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم
بالبينات من ربكم »(٦٥)

لقد استعاذ موسى بالله من طغيان فرعون .

والله تعالى قد وعد موسى وهارون أن يحفظهما من كيد فرعون وأذاه .

« قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما
سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا »(٦٥)

وتحقق وعد الله لهما فلم يستطع جبروت فرعون أن يصل اليهما .. لم يستطع فرعون أن ينال شيئا من موسى برغم حقده وجبروته وطغيانه وبرغم أن موسى يتحداه داخل أرضه ويهدد سلطانه . « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

لقد كان ارهاب السلطة الفرعونية يغلف الشارع المصرى . ونلمح ذلك من خلال تحركات الشخصيات فى قصة موسى .

يقول تعالى يحكى عن بداية موسى بعد القائه فى اليم « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون »

فاخت موسى كانت تقص آثر التابوت الذى يسبح فى النيل ، وهى تحاذر أن يراها أحد .

ولا ريب أن التابوت قد وصل الى منطقة محرمة حيث يقع قصر الفرعون مما استوجب على أخت موسى أن تتوارى حتى لا يشعر بها احد من الملأ المحيطين بقصور الفرعون .

وانتهت القصة بأن تبنّت امرأة فرعون موسى ثم عاد موسى الى أمه كى ترضعه .

« فرددناه الى أمه كى تقر عينها ولا تحزن
ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر
الناس لا يعلمون ولما بلغ أشده واستوى

آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها »

ونستفيد من الآيات أن موسى نشأ مع أهله رضيعا ثم شب معهم الى بلوغه الشباب وبعدها دخل مدينة الفرعون . أو بالأحرى تسلل اليها على حين غفلة من أهلها .

ولو كان موسى قد عاش فى قصر الفرعون ما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها . إذن لابد حينئذ أن يكون معروفا ذا نفوذ .

ويبدو من الآية أن مدينة فرعون كانت أشبه بالثكنة العسكرية لا يدخلها غريب عنها إلا متسللا وأن من يتسلل الى هذه المدينة من غير المصريين يكون عرضة للظلم .

وهكذا فإن موسى وجد شجارا فى المدينة أو بمعنى آخر وجد شخصا من شيعته الذين تربوا معه فى الحى الاسرائيلى يدافع عن نفسه أمام بغى واحد لابد أن يكون من جند فرعون .

واستغاث المظلوم بموسى . ولأن ذلك الرجل المصرى يمثل السلطة الفرعونية التى يستطيل بها على الاسرائيلى فإن موسى كان أقرب الى حالة الدفاع الشرعى عن النفس ، وبهذه الحالة النفسية استخدم موسى كل قوته وكراهيته للظلم فى ضربة واحدة قضى بها على خصمه .

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » .

□ □ □

لقد عرف موسى منذ اللحظة الأولى من هو عدوه ومن هو شيعته . ومعناه ان ذلك المصرى كان من الملأ المتخصصين فى ايقاع الأذى ببنى اسرائيل ولذلك تآمر رفاقه على قتل موسى ، وبعدها كانت الاشاعات بقتل موسى للمصرى قد انتشرت ، أو ربما كان الملأ قد حققوا فى الأمر ووصل اليهم من سمع مقالة الاسرائيلى لموسى .

« أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس »

وهكذا جاء الرجل الآخر - ونرجح انه كان مصريا - يحذر موسى

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين »(٦٦)

وفى عصر الطغيان وفى أوقات الشدة يكون الرجال قليلين من بين الذكور من البشر ..

والقرآن الكريم يصف ذلك المصرى بالرجولة ويكتفى بذلك عن ذكر اسمه ليحوله الى رمز ، وكذلك فعل القرآن مع « رجل » آخر قال كلمة حق لقومه وأوذى فى سبيلها .

« وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين »(٦٦)

ووصف القرآن بعض المؤمنين حول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقت محنة الأحزاب بقوله :

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا »(٦٦)

أما بعض (الذكور) من قوم لوط فقد قال لهم لوط :

« يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ؟ »(٦٦)

فليس كل الذكور رجالا .. نعود الى الرجل (الرجل) المصرى الذى سجل القرآن الكريم موقفه (الرجولى) ونقرر أن المصريين لم يفتقروا الى وجود رجال حتى فى أحلك عصور الطغيان .

ثم نعود الى موسى بعد أن حذره الرجل المصرى وهو يتسلل من المدينة التى حولها الارهاب الفرعونى الى ثكنة عسكرية .

ولا نجد أبلغ من وصف القرآن لحال موسى وحال تلك المدينة .

« فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين »(٦٦)

ولقد شملت دائرة الخوف من ارهاب فرعون أقرب الناس اليه ، فالرجل المؤمن من آل فرعون كان يكتم ايمانه خوفا من فرعون .

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله »

ومع ذلك الخوف كان يجادل قومه داعيا إياهم الى الحق فى حوار طويل أورد القرآن بعض تفاصيله ، وأشار القرآن الى أن مكانة ذلك الرجل لم تدفع عنه المؤامرات من الملأ ولولا نصرة الله له لأصابه منهم ضرر عظيم . قال لهم (الرجل المؤمن) يائسا فى النهاية

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله إن الله بصير بالعباد »

وتقول الآية التالية عنه وعن أعدائه

« فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب »(٦٧)

إذن نحن أمام (رجل) مصرى آخر ليس من قاع المدينة بل من داخل البيت الفرعونى .

ولقد وصلت دائرة الخوف من الارهاب الفرعونى لتضم امرأة فرعون نفسها وهى التى استعاذت بالله من شر فرعون فقالت

« ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين »(٦٧)

وفى النهاية فإن دائرة الخوف اكتملت بفرعون نفسه ، فالظالم أكثر الناس رعبا من عاقبة ظلمه وكلما ازداد رعبا ازداد ظلما ليحمى نفسه من أوهام تسيطر عليه ، وكلما ازداد ظلما أزداد رعبا من أشباح ضحاياه .. وهكذا يصل فى النهاية الى مصرعه .

وكان فرعون يخشى من دعوة موسى السلمية التى تتلخص فى بساطة شديدة فى أن يخرج بقومه من مصر .. والعقل الحصيف لا يرى خطرا فى أن يتخلص الفرعون من أولئك الذين يكرههم ويستضعفهم ، ولكن أوهام فرعون ومخاوفه من أن تنتقم منه أشباح الضحايا السابقين من بنى اسرائيل جعلته يرفض ذلك بل يعتبرها دعوة لتخريب نظامه القائم على الارهاب المطلق .

وكان العلاج أن يقتل المزيد من الضحايا حتى يشعر بالأمن ويطرد عنه الخوف .

« وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد »

وبلغ الخوف بفرعون درجة الغيظ من هذه الشرذمة القليلة التى هربت بنفسها من جحيمه .

« فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون »(٦٧)

تكاثرت مخاوف فرعون من هذه الشرذمة القليلة التى بالغ فى اضطهادهم الى أقصى مدى ولم يكتف بذلك بل طاردهم بغيا وعدوا الى أن وصل بظلفه الى حتفه . وربما يتحول الخوف فى نفس المظلوم الى إيمان فيشعر بالأمن متوكلا على الله

أما الظالم فيظل أسير الشيطان يعيش فى دائرة من الرعب لا نهاية لها إلا بموته .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب
بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا
ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين »

ويعلمنا القرآن أن نخشى الله وحده كى نشعر بالأمن وإلا أخافنا الشيطان من كل شىء ومن لا شىء .

« إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
فلا تخافوهم وخافون ان كنتم
مؤمنين »(٦٨)

لقد سيطر الشيطان على فرعون فأخافه من بنى اسرائيل حيث لا محل للخوف منهم مطلقا . وزين له أن يتطرف فى اضطهادهم وفى كفره فى نفس الوقت . يقول تعالى

« وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُدَّ
عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى
تباب »(٦٩)

ومن القرآن نعرف وسائل فرعون فى اضطهاد خصومه .

كان السجن والصلب من وسائل العقوبة والاضطهاد فى عصر يوسف حيث كان الهكسوس يحكمون .

وفى عصر فرعون أضيف للصلب تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف

أن فرعون أراد أن يثبت للسحرة انه أشد عذابا وأبقى من رب العزة .

« قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى »(٧٠)

إذن حرص فرعون على ايقاع الايلام فى العذاب ليؤكد دعواه فى الألوهية والاستبداد وتحدى رب العباد .

وبالاضافة الى ذلك كانت هناك عقوبات آخرى مثل السجن والرجم وقتل الأبناء واستحياء البنات .

ففرعون هدد موسى بالسجن .

« قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين »(٧٠)

وكان موسى يخاف منهم أن يرجموه لذا قال لهم :

« وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون »(٧٠)

أى كان اعتزالهم له فى حد ذاته آمنية له !!

وتحدث القرآن عن اضطهاد بنى اسرائيل وتعذيبهم . ولكن السؤال هل اقتصر ذلك على قتل الأبناء واستحياء البنات ليكونوا خدما لفرعون وقومه ؟

لقد عمل فرعون على إضعاف بنى اسرائيل وكان من وسائله فى ذلك أن يقضى على نسلهم بتلك الطريقة المبتكرة ، ولكن كانت له وسائله الأخرى فى تعذيبهم .. يقول تعالى :

« وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم »(٧٠)

و(الواو) التى جاءت فى قوله تعالى « ويذبحون » « ويستحيون » تفيد انهم كانوا يعانون من العذاب بالاضافة الى ما كان يحدث لأبنائهم وبناتهم .

ولو كان عذابهم فى آن يروا ما يحدث لأبنائهم وبناتهم لكفى .

ولا ريب أن فرعون كان يحس بالتقصير وهو يطارد بنى اسرائيل وهم يفرون منه .

ولا ريب انه كان يحاول أن يصلح خطاه حين تركهم احياء وكان يسارع مخلصا فى إصلاح هذا الخطأ الى أن استيقظ وموج البحر يحتويه فاعلن توبته واسلامه فى الوقت الضائع .

يقول تعالى :

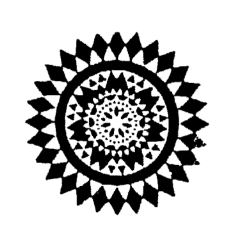
« وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ فاليوم ننجيك

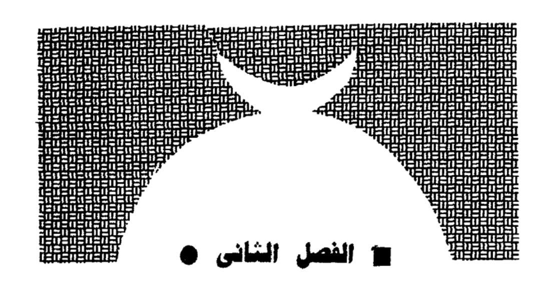
ببدنك لتكون لمن خلفك آية . وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »[٧٢]

وصدق الله العظيم ..

« وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »

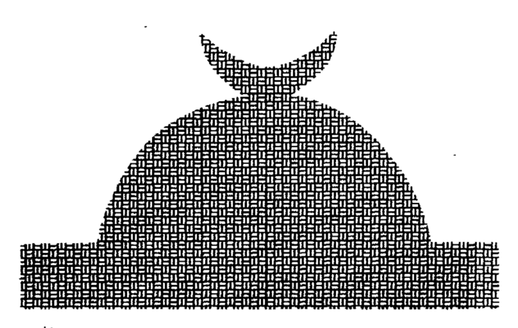
□ □ □





الفصل الثانى

المجتمع المصرى القديم
فى القران الكريم



لمحة عامة :

التاريخ الاجتماعى لعصر ما من أشق أنواع التاريخ ، ويزيد فى صعوبته كلما تباعد ذلك العصر فى الزمن وكلما ندرت مصادره ، وينطبق ذلك على المجتمع المصرى القديم خصوصا وقد دارت مصادره وآثاره حول الفراعنة والطبقة الحاكمة وتوارت طبقات المجتمع الدنيا فى زوايا النسيان والاهمال .

وقد أتحفنا القرآن الكريم ببعض الاشارات التى توضح غموض الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة .. منها اشارة للأعياد المصرية التى تكون أياما للزينة ، وفى أحد هذه الأيام كانت المباراة الكبرى بين موسى والسحرة .

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يُحشر الناس ضحى »[1]

ومنها اشارة لطبقات المجتمع نحسها من أنفة النسوة من الطبقة الراقية فى قصة يوسف حين علمن بأن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه فقلن

« إنا لنراها فى ضلال مبين »

لم يكن موقفهن فى الاحتجاج مبنيا على أسس أخلاقية وانما قام على اسس طبقية اجتماعية كيف تتدنى امرأة العزيز إلى مغازلة خادمها يوسف . والدليل انهن عندما رأين يوسف وانبهرن بجماله تناسين الفوارق الطبقية ووافقن امرأة العزيز على موقفها وتشجعت امرأة العزيز فهددت يوسف بالسجن باسمها واسمهن ورد يوسف :

« قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » . . (٢)

ولو كان التهديد من امرأة العزيز فحسب لقال يوسف (مما تدعونى إليه) .

ونحس إشارات أخرى لطبقات المجتمع من قصة موسى وكيف استضعف الفرعون طائفة من أهل مصر واضطهدهم . وكيف كان أهل مصر شيعا وأحزابا بمعنى الكلمة بحيث أن موسى يقول لربه .

« قال رب انى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » . . (٣)

ويتضح فى التعبير أن موسى اعتبرهم شعبا آخر .

والرجل الذى جاء من (أقصى المدينة يسعى) أغلب الظن فيه أنه مصرى من الطبقات الدنيا من المجتمع ولابد أنه عانى من الظلم لذا اتخذ موقفا ايد فيه موسى وخاطر بنفسه لكى يحذره من تآمر الملأ على حياته .

وإذا كان قصر الفرعون مطلا على النيل ـ بحيث وصل إليه التابوت الذى حمل موسى ـ فان ذلك المصرى الفقير كان يعيش على أطراف المدينة وفى ضواحيها القاصية ومن هناك جاء إلى موسى يسعى

■ □ ■

ولقد كانت البيئة المصرية فى عصر الرعامسة تؤمن بالتفاؤل والتشاؤم . يقول مؤرخ عصر الرعامسة انهم قسموا الايام إلى ثلاثة أقسام أيام سعيدة وأيام منذرة وأيام معاكسة عدوانية

وان سلوك الافراد كان ينظم وفقا لطبيعة الأيام ففى أيام النحس لا ينبغى مغادرة البيت أو القيام بعمل .. وكان لديهم تقويم بأيام السعد وأيام النحس اعتمادا على تقاليدهم الموروثة[٤] وعلى ذلك نفهم لماذا كانوا يتطيرون - أو يتشاءمون - بموسى ومن معه اذا حدث لهم مكروه . يقول تعالى عنهم

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه إلا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون »[٥] .

وفى قصة يوسف اشارات عن الرقى الحضارى الذى كان عليه البيت المصرى فى الطبقات الحاكمة .. فقد كان يتكون من حجرات شتى وأبواب متعددة وأجنحة مختلفة ، بدليل أن امرأة العزيز حين أرادت الخلوة بيوسف غلقت الأبواب ..

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » .

والمتوقع أن تكون قد عملت على اتمام الخلوة بأن تغلق باب الجناح الذى تقيم فيه مع باب حجرتها الخاصة وأبوابا أخرى بينهما .. ومما يدل على كثرة الأبواب التى ينبغى غلقها فى تلك المساحة أن القرآن يستعمل لفظ الجمع « وغلقت الأبواب » وكثرة الأبواب دليل على تقدم الرقى الحضارى والمعمارى . وحاول

يوسف الهرب من حجرتها فقفز للباب كى يخرج وسبقته هى لتحول بينه وبين الخروج وجذبته من خلف فمزقت قميصه وانفتح الباب فظهر الزوج المحترم لدى الباب ..

« واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب » ..

إذن كان سيادته يحتفظ بمفاتيح للأبواب . أى كانت الأقفال تفتح من الداخل والخارج ، وذلك تطور معمارى هائل فى ذلك العصر البعيد

وأرادت امرأة العزيز أن ترد على نساء المدينة فأقامت لهن حفلا .

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »(٦) .

ومن خلال الآية نتجول فى داخل بيت العزيز ، ففيه مساحة واسعة تكفى لأن تعد السيدة فيه متكئا لمجموعة كبيرة من النساء ، والمتكأ المناسب لبيت مثل هذا لا يمكن أن يكون حصيرة بل أرائك ناعمة تتكىء عليها النسوة المترفات ، بينما تطوف عليهن الخادمات بأطباق الفاكهة وسكاكين يأكلن بها . أى أن المصريين منذ حوالى (٤٠٠٠ عام) كانوا يستعملون السكين فى تناول الطعام .. هذا فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون لم يهبطوا بعد من فوق الأشجار .. ''

■ □ ■

والرقيق الذى يخدم فى البيوت كان من مظاهر الجاه فى ذلك الوقت . وقد جاءت قافلة من الشرق تحمل يوسف . وفى مصر بيع

يوسف واشتراه الرجل الذى صار عزيزا لمصر وحرص على ان يرعاه رعايته لابنه . وذلك تقدم حضارى فى التفكير تجاوز عقلية لنكولن محرر العبيد فى امريكا .

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

والملفت للنظر ان القران يعتبر نشاة يوسف رقيقا فى هذا البيت تمكينا له فى الارض

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » .

ولقد كانت مصر جنة الرقيق والمماليك واصبحوا بها ملوكا وسلاطين

لقد كان عزيز مصر حين اشترى يوسف يطمع فى ان يتخذه ولدا . ولكن كان لزوجته راى آخر

والمهم انها ردت على النسوة بتلك التجربة وفاجاتهن برؤية يوسف ومن ذلك نفهم انهن لم يرين يوسف من قبل . ولعل ذلك يرجع إلى حواجز كانت تمنع النساء من الطبقة الراقية من الاختلاط برقيق البيوت الآخرى ، وربما لم يكن مباحا ليوسف ان يغادر البيت إلى الشارع او إلى البيوت الأخرى ، وإلا فإن حسنه سيصير مشهورا فى المدينة ولاحاجة حينئذٍ للتجربة التى اقامتها زوجة العزيز .

■ □ ■

وامرأة العزيز تجرنا إلى الحديث عن المرأة المصرية القديمة :

ان المرأة تلعب دورا هاما فى قصة يوسف ونلمح فيها ادوارا لامرأة العزيز والنسوة فى العاصمة المصرية القديمة وام يوسف .

أما فى قصة موسى فللمرأة دور أوضح .

فهناك ام موسى واخته وامرأة الفرعون والمراضع والفتاتان

من مدين واحداهما أصبحت زوجة موسى التى عادت معه إلى مصر .

ومع كثرة الأدوار النسائية فى قصة موسى إلا أن صوتهن خفت ليفسح المجال لصوت فرعون الطاغية ، وحتى زوجة فرعون نفسها كانت تخلو بنفسها بعيدا عنه تدعو الله عليه .. !!

أما فى قصة يوسف فكان صوت المرأة أعلى على حساب الرجل ، ويكفى أن الاشاعات النسائية كانت تجد الرواج .

فقد ذاعت قصة امرأة العزيز مع فتاها الوسيم وانشغلت العاصمة المصرية بتلك النميمة .

« وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين »(٦) .

وذلك الصوت العالى للمرأة يعنى أنه كان لها نفوذها فى داخل البيت المصرى فى ذلك الوقت .

صحيح أنه من الناحية الرسمية كان الرجل سيد المرأة ، والقرآن يقول عن الوضع الرسمى للزوج فى ذلك الوقت .

« واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب » . .

إذن كان العزيز زوج المرأة سيدا لها .. وفى نصائح الحكيم المصرى بتاح حتب فى معاملة الزوجة .

« أسعد قلبها ما دامت حية لأنها حقل طيب لمولاها »(٧) .

أى كان الزوج هو ولى أمر الزوجة وسيدها .. ورد ذلك فى القرآن والتراث الفرعونى .. هذا صحيح من الناحية الرسمية ولكن الواقع أن الزوج فى هذه الفترة كان يملك ولا يحكم .. له السلطة الاسمية

فى البيت وكفى .. أما السلطة الفعلية فللمرأة الحديدية .. وتعبيرات القرآن فى قصة يوسف تعكس ذلك ..

فعزيز مصر - الذى يحتل مكانة سياسية هامة - حين اشترى يوسف قال لامرأته .

« اكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » .

فحين طلب منها ذلك قدم لها تبريرا يقنعها فقال :

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » . .

وقال القرآن :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه »

وهو تعبير بليغ عن تحكم تلك المرأة فى البيت وسلطانها على ما فيه ومن فيه . وحين ضبطها الزوج المحترم وهى تراود يوسف فى مخدعها أو مخدع الزوج فانها لم تفقد رباطة جأشها وهى فى ذلك الوضع الشائن أمام زوجها ولكنها قالت :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم.» .

أى أنها بادرت بالاتهام ثم عجلت بالحكم والعقاب وليس على الزوج إلا أن يسمع ويطيع .. وحدث فعلا أنه سمع وأطاع ، بُورك فيه ..

ولأنها تحب يوسف ولا يزال لديها أمل فى أغوائه فانها لم تقل :

« إلا أن يُقتل أو عذاب أليم » .

أرادت له السجن أو العذاب لتنتقم لكرامتها المجروحة .. أما الزوج المحترم فليس له اعتبار فى الموضوع إلا مجرد التنفيذ لأوامر السيدة الحديدية .

وملابسات الموضوع تطرح براءة يوسف منذ البداية ورجل فى ذكاء عزيز مصر وقتها لابد أن يفهم ذلك ، ولابد أنه فهم ذلك .

ولكن ما باليد حيلة . ولكن يوسف البرىء تمسك بعفته وصارت قضية تولى الحكم فيها رجل من أهل المرأة ، وتبين له براءة يوسف ومع ذلك فلم يزد على أن قال لها باختصار واستسلام .

« إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » .

ثم قال ليوسف كأنه يعتذر له :

« يوسف أعرض عن هذا » .

ولانسمع تحركا إيجابيا من الزوج المحترم ، بل انه حتى لم يوبخ امرأته ، أو لم يفصل بينها وبين يوسف ، فترك يوسف لها فريسة مما شجعها على خطوتها التالية .

فقد انتهزت المرأة تلك الاشاعة النسائية عن غرامها بيوسف فأعدت تلك الوليمة وفاجأت النسوة المحتجات بيوسف يظهر أمامهن ففقدن وعيهن أمام جماله وضمنت امرأة العزيز تأييدهن لها .

وتبدو تمام سيطرتها على يوسف ـ برضى زوجها أو سكوته ـ فى أمرها ليوسف أن يدخل على النسوة يخدمهن ـ فى الأغلب ـ

« واعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن »

أى رتبت المرأة كل شىء .

اعتدت لهن الأرائك المريحة الناعمة فاسترسلن فى (الرغى) ، ثم جاءت أطباق الفاكهة بالسكاكين ، ثم أمرت يوسف بأن يدخل القاعة فجأة ـ وأطاع فليس له أن يعصيها ـ فأتت المفاجأة ثمرتها .

وتحول الموقف إلى صالح المرأة وساندتها النسوة وأصبح الرأى العام النسائي يطالب بافتراس يوسف ، ولم يجد يوسف عليه السلام نصيراً من بين الأزواج المحترمين ، امرأة العزيز تهدده باسم النساء .

« ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » .

لذا لجأ يوسف إلى ربه الأعلى ليحميه من كيد النسوة :

« قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهم وأكن من الجاهلين » .

واستجاب له ربه فحماه من كيد النسوة المفترسات .

« فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن » .

لقد هددت امرأة العزيز يوسف أمام زوجها بأن تسجنه ، وكانت تهمته أنه راودها عن نفسها . وظهر افتراؤها وأنها هى التى راودته . ثم كانت النهاية بعد أن انكشفت حقيقتها أمام زوجها وأمام المجتمع أنها أعادت تهديد يوسف بالسجن إن لم يفعل بها الفاحشة ، وانضم إليها فى هذا التهديد باقى النسوة (المحتجات سابقا والطامعات فى يوسف بعدها) وأصبحت الفضيحة جماعية ، وبدلا من وجود حياء لدى النساء وكرامة لدى الأزواج فان رأى النساء هو الذى انتصر فى النهاية ، وقرر الرجال المحترمون عقوبة يوسف بالسجن لأنه لم يرض زوجاتهم .. !! يقول تعالى عنهم :

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين »(٨) .

ولقد كشفت تلك القصة عن نفوذ هائل للمرأة في عصر الهكسوس
وبسبب ما فيها من عناصر انسانية اجتماعية درامية فان تلك القصة ترسبت في الوجدان الشعبي المصري القديم . وحيكت على منوالها قصص كثيرة منها تلك الأسطورة الشهيرة التي راجت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد أي بعد يوسف بنحو خمسة قرون .

وأبطالها ثلاثة : (أنبو) وهو صاحب دار ومزرعة وزوجته الفاتنة اللعوب ثم (باتا) شقيقه الأصغر الذي وصفته الأسطورة بالقوة والاخلاص والوفاء وأنه مؤيد بقوة ربانية مع مهارته في الزراعة والرعي . وواضح أن الأخ الأكبر يمثل شخصية عزيز مصر ، والأخ الأصغر يمثل شخصية يوسف .

وقد اعتاد الأخ الأصغر أن يرعى زراعة أخيه ويعود في المساء محملا بالخيرات فيداوم على خدمة أخيه في المنزل ، وهنا ملمح آخر من قصة يوسف الذي عمل في منزل العزيز خادما وعمل مشرفا على الزراعة والمحاصيل المصرية فيما بعد . وتقول الأسطورة أنه عندما حل موسم الزرع أعد (باتا) مع أخيه الثيران للحرث وانشغلا في العمل فأرسله أخوه من الحقل إلى البيت ليحضر البذور ، ولما بلغ الدار وجد زوجة أخيه تمشط شعرها فطلب منها احضار البذور .

فقالت له : اذهب أنت إلى مخزن الغلال واحمل منه ما تشاء ولا تضطرني لترك ضفائري .

ودخل (باتا) المخزن وبينما يحمل البذور في المخزن دخلت زوجة اخيه وراودته على نفسها وقالت له هيت لك ودعنا نخرج ساعة ونضطجع ، ولكن الفتى نهرها قائلا : أنت بالنسبة لي بمنزلة الأم وزوجك في منزلة الأب وقد تعهدني ورباني فلم هذا العار الذي تدعينني إليه ؟

وهذا القول يشبه قول يوسف لامرأة العزيز :

« انه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون » .

وعاد (باتا) للمزرعة فلم يخبر أخاه ولكن فى المساء اتهمت الزوجة (باتا) بأنه راودها على نفسها فعزم الأخ على قتل أخيه ، وتربص به ، ولكن الأبقار أخبرت الأخ الأصغر وحذرته من أخيه وخنجره ـ وذلك ملمح من التأثر بمنام الملك الذى يحوى البقرات ـ وهرب الأخ من خنجر أخيه الأكبر وتطلع للسماء فقال :

« مولاى الكريم أنت تفصل بين الآثم والبرىء » .

فظهر نهر عظيم ملىء بالتماسيح فصل بين الأخوين . وأظهر الأخ الأصغر براءته لأخيه فصدقه ، وقال له أنه سيهاجر إلى وادى الأرز ـ أى لبنان ـ وعلى أخيه الأكبر أن يبحث عنه إذا حدث له مكروه .

« ولو انفق فى البحث سبع سنين »(٩)

ومن بلاد الأرز جاء يوسف واخوته ، والسبع سنوات وردت فى تفسير يوسف للمنام ..

ولكن علو نفوذ المرأة فى ذلك العصر لا ينبغى أن يحجب بعض العناصر الايجابية فى الناحية الأخلاقية .

فهناك الرجل الذى شهد بالحق ضد امرأة العزيز مع مكانتها الاجتماعية وكونه من أهلها ، وكان ممكنا أن يجور عن الحق تعصبا لقريبته المخطئة أو لمكانتها الاجتماعية وعوامل الطبقية خصوصا وأن الخصم فى القضية خادم مملوك .. ولكن ذلك الشاهد وقف موقفا رجوليا سجله القرآن وجعله رمزا .

« وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قُد من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قيمصه قُد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قُد من دبر قال انه من كيدكن

ان كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك انكِ كنت من الخاطئين »[١٠]

لقد جاء حكم الشاهد عادلا ساوى بين الخصمين مع ذكاء وفهم لملابسات القضية وظروف الواقعة ، وحين ظهرت النتيجة واضحة فى براءة يوسف واتهام سيدة البيت طيّب الرجل خاطر يوسف ووبخ امرأة العزيز ودعاها لأن تستغفر لذنبها لأنها كانت من المخطئين .

وهو بذلك يتفق مع ما جاء فى متون الأهرام .

« ان الملاح السماوى لا يسمح بالعبور لغير الصالحين العادلين »[١١]

ثم حدث تطور أخلاقى فى موقف امرأة العزيز ونسوة المدينة بعد أن لبث يوسف فى السجن بضع سنين ، مرجعه فى الحقيقة إلى صحوة فى الضمير وليس من اشارة فى القرآن تنبىء عن وقوع ضغط سياسى من الملك عليهن كى يعترفن ببراءة يوسف ، لقد أراد الملك أن يصل للحقيقة وجاءه الاعتراف واضحا صريحا يعكس الندم وتأنيب الضمير .

« وقال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم » . .[١٢]

■ □ ■

الحيــاة الـدينيــة :

وفى الآية الكريمة مدخل جيد للحياة الدينية فى مصر القديمة .

فالواضح أن النسوة فى مصر القديمة كن يعرفن اسم الله تعالى وينطقن به عند الدهشة والاستغراب والمفاجأة .. فالنسوة المترفات حين أخذهن جمال يوسف قلن فجأة .

« حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »

وحين حقق الملك معهن قلن :

« حاش لله ما علمنا عليه من سوء » ..(١٢)

إذن كانت عبارة « حاش لله » السابت على لسانهم حتى فى المفاجآت والأوقات الصعبة .

وما سجّله القرآن منذ ألف وأربعمائة عام اكتشفه علماء المصريات .

يقول أرمان فى كتابه « ديانة مصر القديمة »

ومما يبعث على الدهشة ان المصريين كثيرا ما تحدثوا ـ علاوة على آلهتهم المعنية ـ عن إله عام ويحدث ذلك فى الأدب عندما يفكرون فى تلك القوة التى تتحكم فى مصائر الناس فمثلا يقولون :

« ما يحدث هو أمر الله ، « صائد الطيور يسعى ويكافح ولكن الله لا يجعل النجاح من نصيبه » « ما تزرعه وما ينبت فى الحقل هو عطية من عند الله » ، « من أحبه الله وجبت عليه الطاعة » ، « الله يعرف اهل السوء » ، « إذا جاءتكم السعادة حق عليكم شكر الله » .
ثم يقول « أرمان »
« وهناك فقرة وردت فى كتاب قديم من كتب الحكمة تقول : ان الله خفى ولذلك وجب على الناس تقديس صورته كبديل له »
ثم يعقب (أرمان) بقوله ·

« هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن العقيدة الحقة ، ولو أنهم فى الواقع تعلقوا أيضا بدينهم الموروث وبقوا عبادا أمناء لآلهتهم »(١٣)

والعبارات التى ذكرها (أرمان) مازال المصريون يقولونها ويذكرون اسم الله تعالى ولكن باللغة العربية بدلا من الهيروغليفية
ويبدو لى ان القرآن حكى بعض الألفاظ المصرية القديمة فى قصة يوسف ومنها كلمة « هيت لك » ولازال اهل سيوه فى لغتهم الخاصة المنحدرة من الفرعونية يقولون « هت » بكسر الهاء وتعنى عندهم تعالى ، وتتكرر على السنتهم بعض الالفاظ والتعبيرات مثل « حاش لله » وتعنى عندهم « لم يحدث » ومثل « حصحص » وتعنى عندهم تأكد
وتلك الألفاظ لم تأت فى القرآن إلا فى قصة يوسف ثم دخلت فى اللغة العربية تبعا لذلك .

وتنفرد قصة يوسف بين القصص القرآنى بورودها متصلة الأحداث والمشاهد فى سورة واحدة قائمة بذاتها لتكون كنزا لا ينفذ من الاعجاز التاريخى والقصصى والانسانى ، ولتعطينا مؤشرا

من ناحية أخرى على أن ذلك النبى الكريم قد أثرى الحياة الانسانية المصرية خلقيا ودينيا ولم يكن مجرد منقذ لهم وقت المجاعة .

ونحن نرى أثر قصة يوسف وتجربته الانسانية فى قول الحكيم المصرى القديم « آنى » لابنه خنسو ـ حتب من الأسرة الثانية والعشرين ـ بعد يوسف بخمسة قرون تقريبا ، يقول :

« لا تترك قلبك ألعوبة فى الميل نحو النساء فان ذلك يذهب بقوة دينك وعلو شرفك وأدب نفسك ، فالمرأة بما أوتيت من الدهاء وتأثيرالأنوثة من أقوى حبائل الشيطان » ..

وفى نفس العصر يقول الحكيم المصرى بتاح حتب :

« إن مسَّ الأعراض وخيانة الأمانة ومحاولة الافساد مع من حزت ثقته وعولَ على صداقتك جريمة كبرى يتضاعف عليها العقاب عند الله جلت قدرته »(١٤) .

وهذه النصائح الأخلاقية يمكن نسبتها إلى أئمة المسلمين فى الورع دون أن نحس باى فارق فى اللهجة والأسلوب ..

لذلك لا نستغرب أن تقف امرأة العزيز تعلن توبتها وندمها أمام الملك والملأ والنسوة وتقول :

« الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ان ربى غفور رحيم » .

فذكرت اسم الله تعالى على أنه ربها الغفور الرحيم ، وهو موقف صادق للتوبة كفى شرفا لصاحبته أن يذكره رب العزة فى القرآن ..

ولكن هل خفتت معرفة المصريين القدماء بالله فى عصر فرعون موسى الذى ادعى الالوهية واضطهد المؤمنين » ؟

القرآن ينفى ذلك .. ان عناد فرعون وقومه كان يخفى إيمانا بالله تعالى منعه التكبر والحرص على الدنيا من الظهور . يقول تعالى عنهم .

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا »

وعندما اختبرهم الله بالمحن كانوا يفزعون الى موسى ليطلب من الله ان يكشفها عنهم .

« ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » .

وموسى حين بدأ دعوته ذكرهم باسم الله الذى يوقرونه فقال لهم .

« أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين وان لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين »

واستحلفهم بالله ألا يرجموه :

« وانى عذت بربى وربكم أن ترجمون »(١٥)

أى كانوا يعرفون أن الله هو ربه وربهم ..

وعلى نفس النسق من التذكير بالله والتخويف منه كان مؤمن آل فرعون يعظ قومه بما يعرفون وممن يخافون ويخشون ..

« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » ، « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ؟ » ، « ويا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » .

ويبدو إيمانه باليوم الآخر إيمانا صحيحا من قوله :

« ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فماله من هاد » « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب .

لقد كان عامة المصريين القدماء يؤمنون بالآخرة إيمانا مبهما ولكن القلة منهم كانوا يؤمنون بها حق الايمان وكذلك يبدو أنه يعرف حقيقة الايمان الخالص ويدرك أن الكفر فى الحقيقة انما هو الشرك بالله وتغطية الفطرة السليمة بعبادة الأولياء والأنداد فهو يقول لقومه :

« وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لأجرم أننا تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار »

وفى النهاية يقول لهم :

« فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد » (١٦)

لقد كان حوار ذلك الرجل المؤمن دليلا على درجة من الرقى الدينى والأخلاقى لا تتوفر إلا للصفوة من الصديقين ، وإذا كان (إرمان) قد اندهش لأنه عثر على بعض عبارات للمصريين القدماء يذكرون

فيها اسم الله فى أحاديثهم وكتاباتهم فكيف به إذا عثر على تسجيل لأقوال ذلك الحكيم الفرعونى المؤمن الذى شرَّفه القرآن ؟ .

لقد كان ذلك الرجل مؤمنا بالله الواحد الأحد وليس مثل الأغلبية الذين يؤمنون بالله ويؤمنون بغيره ، وقد حاولوا معه أن يؤمن أيضا بتلك الآلهة مع الله فرفض قائلا

« تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار » ..

وفى مقابل الأغلبية المشركة التي تؤمن بالله وبغير الله كانت هناك أقلية يمثلها ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون .

وكان منهم امرأة فرعون نفسه وقد جعلها الله مثلا لكل المؤمنين ذكورا وإناثا ، يقول تعالى

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين »(١٧).

وهذه المرأة المؤمنة هى التى فاضت حنانا على موسى وهو فى التابوت وأنقذته وما زالت بزوجها حتى وافق على انقاذه ورعايته .

« وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا »(١٧)

والمتوقع أن يكون وجود موسى رضيعا فى البلاط الفرعونى قد جعل هناك صلة ما نتج عنها تسرب الايمان الى امرأة فرعون ثم الى ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون . مما يرجح وجود تيار سرِّى من الايمان وخلايا من المؤمنين ، داخل وخارج القصر الفرعونى . ومنه ربما كان تحرك ذلك الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لينقذ موسى ويحذره .

ثم انضم للأقليات المؤمنة مجموعة السحرة الذين جاءوا ليهزموا موسى وهم يحلمون بالقرب من فرعون ولكنهم فوجئوا ببرهان عملي على نبوة موسى فلم يترددوا في السجود لله اعلانا بايمانهم على رءوس الأشهاد .

ورفضوا أحلامهم القديمة واستهانوا بتهديدات فرعون وما ينتظرهم من تقطيع أيديهم وأرجلهم وصلبهم على جذوع النخل .

وأجابوا على تهديداته بأفضل ما يقوله المؤمن عند المحنة امام

« قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . . انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايا أن كنا أول المؤمنين » قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » ، « قال امنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ، إنه من

يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . . » (١٨)

ومع ذلك فان أغلبية المصريين القدماء كانوا مع معرفتهم بالله ووجود مؤمنين موحدين بينهم ـ متمسكين بتقديس الآلهة وأصنامهم وقبورهم ، وكان غرامهم شديدا باطلاق الأسماء على تلك الآلهة ويترسب تقديس تلك الأسماء فى الضمير الشعبى .

وقد كان يوسف عليه السلام رسولا للمصريين وقد بدأ دعوته فى السجن ، وحين سأله رفيقاه أن يفسر لهما رؤياهما لم يبادر بالتفسير وانما قدم نفسه وعقيدته لهما ثم أخذ يحاورهما فى عبادة الأسماء ويدعوهما إلى عبادة الله الواحد الذى لا إله غيره .

نفهم من ذلك من قوله تعالى :

« ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبى السجن أأرباب

متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟
ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها
أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان
ان الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه
ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
لا يعلمون »(١٩)

وواصل يوسف دعوته حين أصبح له نفوذ وسلطان ولكن المصريين تمسكا منهم بآلهتهم ضاقوا به وأعرضوا عنه ، وفيما بعد كان مؤمن آل فرعون يذكر قومه بإعراضهم عن يوسف حين دعاهم لاخلاص دينهم لله وحده .

يقول مؤمن آل فرعون :

« ولقد جاءكم يوسف من قبل
بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به
حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده
رسولا »(١٩)

أى أنهم حتى فى رفضهم لدعوة يوسف كانوا يؤمنون بأنه رسول الله واستراحوا بموت يوسف قائلين :

« لن يبعث الله من بعده رسولا »

وذلك يذكرنا بمقالة أرمان عنهم أنهم مع معرفتهم بالله فانهم ظلوا أمناء مخلصين لآلهتهم الموروثة .

لقد كانوا يعرفون الله والملائكة .. !!

والنسوة فى عصر يوسف قلن حين رأينه « حاش لله ما هذا بشرا ان هذا إلا ملك كريم » وفرعون فيما بعد تندر على موسى قائلا « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين » .

أى كان المصريون يعرفون الله والملائكة .
ولكنهم كانوا متمسكين بعبادة الآلهة الأخرى مع الله ..
وتلك هى مشكلة البشر فى كل زمان ومكان .

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »[١٩]

■ □ ■

تأثر بنى اسرائيل بالديانة المصرية القديمة :

قد يبدو ذلك العنوان غريبا لأن بنى اسرائيل من ذرية أنبياء عظام هم ابراهيم واسحق ويعقوب والأسباط ويوسف ، ثم شهدوا من آيات الله ونعمائه فى عصر موسى مالم يتيسر لأى شعب آخر .. ومع ذلك فان تأثرهم بالعقائد المصرية كان أبعد أثرا إلى درجة أن القرآن أشار إلى ذلك فى أكثر من موضع ..

إلا أنه لم يكن من نواحى تأثرهم بالعقائد المصرية تقديس الفرعون ولعل ذلك سبب نقمة الفرعون عليهم ، وحتى بعد ذلك فقد كان لبنى اسرائيل موقف محدد يرفض تقديس الأنبياء الذى تقع فيه أغلبية البشر ، وذلك شىء فى حد ذاته محمود لولا أنهم وقعوا فى المحظور فقتلوا الأنبياء وحرفوا الوحى »[٢٠]

ولقد بدأ حنين بنى اسرائيل للمعابد المصرية وأصنامها بمجرد أن جاوز بهم موسى البحر ، يقول تعالى :

« وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا

ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون »(٢١)

نسوا معجزات موسى ونعمة الله حين أنجاهم وانتقم لهم من فرعون وجنده ، وحين رأوا معبدا فرعونيا فى سيناء طلبوا من موسى أن يقيم لهم معبدا مماثلا .

وتركهم موسى وذهب يتلقى الألواح من ربه وحين عاد وجدهم قد عبدوا عجل أبيس .. جمع السامرى الذهب المصرى الذى سلبوه وتوارثوه وصاغ منه عجلا فعكفوا عليه يعبدون بمثل ما اعتادوا من قبل ، واعترض هارون فكادوا يقتلونه . ورجع موسى فاشتد به الغضب فالقى الألواح التى كتب الله فيها التوراة وكاد يبطش بأخيه لولا أن اعتذر له ، ودمر موسى العجل الذهبى وألقاه فى البحر وطرد السامرى ، ومع ذلك كان غضب الله عليهم شديدا

يقول تعالى :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم

الظالمين » ، « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا آلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين ، حتى يرجع إلينا موسى قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمرى ؟ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى . قال فما خطبك ياسامرى ؟ قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فان لك فى الحياة

أن تقول لا مساس ، وان لك موعدا لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا . انما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما »(٢١)

■ □ ■

ويوضح القرآن أن عبادة العجل الذهبى ـ الفرعونى الأصل ـ قد تمكنت من شغاف قلوب بنى اسرائيل ضمن باقى المؤثرات التى لوثت عقيدتهم .

« وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم »(٢١)

ويقول تعالى :

« وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون »(٢٢)

أى أن اليهود حين قالوا ان عزيرا ابن الله قد رددوا مقالة الذين كفروا من قبل . والواضح أنهم عاشوا قرونا فى مصر القديمة وتأثروا بعقائدهم . اذن عبارة (الذين كفروا من قبل) مقصود بها أهل مصر القديمة .

ولكن من هو (عزير) الذى ردد اليهود مقالة المصريين القدماء فى اعتباره ابنا لله ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ..

انه الإله (اوزيريس) الذى كان اشهر معبود مصرى يقول عنه (ارمان)

« أنه محور الديانة المصرية » وأن علاقته بالحياة والموت جعلته يحتل مكان الصدارة بين الآلهة فأصبح من أهم الآلهة المصرية » « ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزيريس بعد ذلك إلها للموتى وسيدا لهم وهذه الصفة أبرز الصفات التى عرفت عنه ومن أجل ذلك أصبح فى العصور التاريخية عند المصريين إلها للموتى »(٢٣)

إلا ان المصريين لم يكونوا ينطقون اسم (اوزيريس) بل كانوا يقولون عنه (عزير) بنفس ما هو مكتوب فى القران ولكن اسطورة ايزيس واوزيريس مالبثت ان انتشرت فى اوربا عبر بلاد الاغريق ولأن اللغات الاوربيه تخلو من حرف العين . ولان اللغة اليونانية تضيف حرف السين إلى اخر الاسماء فقد تحول (عزير) إلى (أوزيريس) وانتشر الاسم الجديد عندما بدأت عمليات الكشف عن الآثار المصرية وقيام علم المصريات . وبدأنا نحن المصريين ننطق (أوزيريس) و (ايزيس) وهو نفس الأصل المصرى « عزيز . عزى » .

ونعود إلى بنى اسرائيل وقد حملوا معهم تقديس « عزير » أو « أوزيريس » على أنه « ابن الله » تعالى الله عن ذلك وقد ذكرنا كيف كان المصريون القدماء يعرفون الله . إذن كان

الاساس فى تقديسهم لعزير انه ابن لله ـ والذى يقوم عنه بقبض الأنفس عند الموت ـ ثم حسابها فى القبر

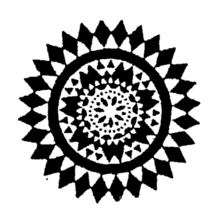
■ □ ■

واضاف بنو اسرائيل ملامح لغتهم العبرية على اسم عزير فاصبح « عزرائيل » وكلمة « ئيل » تعنى عندهم (الله) ومنها (اسرائيل) أى عبدالله

وانحدر الينا « عزرائيل » فى صورة مخففة تعنى ملك الموت .

وهو الطبعة الحديثة من أوزيريس أى أن بضاعتنا ردت إلينا فاسم عزرائيل لم يرد فى القران وذلك يكفى .

■ □ ■



الحياة العقلية العلمية :

ان الدين هو حجر الزاوية فى الشخصية المصرية وهو الحاضر الغائب فى النشاط المصرى القديم والحديث . لقد تضاءل نفوذ السلطة الهكسوسية لأن الحاكم كان مجرد ملك بينما تعاظم الفرعون لأن له ركنا فى الدين المصرى القديم . ونمت الاخلاق الاجتماعية ودارت الحياة الاجتماعية حول محور الدين وبالدين كان أعظم المعمار المصرى القديم معابد وبيوتا للآخرة ..

ومن الطبيعى بعد هذا أن تكون علوم المصريين القدماء فرعا من دينهم المتوارث

ومعنى التوارث لصيق بمصر أقدم حضارة وأكثرها استمرارية .

لذلك فمن المنتظر أن يرفضوا دعوة موسى لأنها تخالف ما توارثوه عن الأسلاف .

« فلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » « قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا »(٢٤)

■ □ ■

ومن الدين كان نبوغ المصريين القدماء فى السحر . ومن نبوغهم فى السحر كانت نظرتهم إلى معجزات موسى ، وكان اعتقادهم فى امكانية أن يفوزوا عليه إذا جاءوا بكل السحرة العلماء من كل المدائن المصرية .

« قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم » (٢٥)

وقد عقد (إرمان) فى كتابه (ديانة مصر القديمة) فصلا كاملا عن السحر وارتباطه بالدين ومهارة السحرة ولكننا لا نجد ابلغ من الآيات القرآنية القليلة التى تحدثت عن سحرة فرعون .

يقول تعالى عنهم :

« فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم »(٢٥)

اذن كان عمل السحرة مجرد التأثير البصرى على أعين المشاهدين ، وبقوة الايحاء النفسى وما فى أنفس المصريين من استعداد للتصديق رأوا ما يريده السحرة لهم أن يروه ، رأوا الحبال والعصى قد تحولت إلى ثعابين ، بينما هى فى الحقيقة لا تزال حبالا وعصيا ملقاة على الأرض بلا حياة .

يقول القرآن بايجاز واعجاز عنهم .

« سحروا أعين الناس واسترهبوهم » .

ليشير من طرف خفى إلى أن مهارة السحرة فى السيطرة على مراكز الحس عند المصريين تستند إلى عقيدة دينية يحتل فيها السحر مكانة هامة ، وان هذه المكانة الهامة تحجب العقل عن رؤية الأشياء على حقيقتها ، وتجعل المشعوذين المهرة « علماء » .

وهناك أكثر من ذلك فى القرآن ، يقول تعالى :

« قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا ، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم

أنها تسعى . فاوجس في نفسه خيفة موسى ، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى »[٢٥]

وعبارات القرآن أقوى من اى تعليق ..

ويقول تعالى عن فرعون وآله ·

« وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا »[٢٥]

ومعنى ذلك أنهم عرفوا حدود السحر وأن ما جاء به موسى أكبر من السحر العادى إذن فهو صادق . وذلك ما كتموه في قلوبهم حرصا منهم على أن يكونوا عالين في الأرض .

ومن الممكن أن نأخذ مؤمن آل فرعون مقياسا لمستوى العلم الحقيقى عند المصريين القدماء . فمن خلال حوارد مع قومه تظهر لنا معرفته بالتاريخ القديم للأمم البائدة منذ عصر نوح فهو يقول لقومه

« وياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم » .

ويقول

« ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا » .

ومن حقنا ان نستنتج انه كانت لديهم حوليات تاريخية سجلت تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأسرات الحاكمة في مصر . وانهم حتى عصر موسى كانوا لا يزالون في شك في دعوة يوسف وجدال حوله ند نراه بارعا في الجدل المنطقي العقلي الهادىء فيناقش اقتراح فرعون بقتل موسى قائلا

« أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم » .

ويستخدم من ادوات حوارد معه ايمانهم بالله وخوفهم منه وحرصهم على استمرار ملكهم فيقول

« يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » ؟

وعلى قدر مهارته في الجدل العقلي الهادىء كانت كراهيته لطريقة الجدال بالتي هي اسوا فيقول

« الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار »(٢٦)

ان من حق كل مصرى وكل مؤمن ان يفخر بموقف السحرة وبذلك الرجل المؤمن الراقي في ثقافته وعلمه وحوارد

■ □ ■

العمارة فى مصر القديمة :

لسنا فى مجال الاستعراض للعمارة المصرية القديمة التى لا تزال آثارها تبهر العالم ، وما كتب عنها من مجلدات لم يكتب على غيرها من عمائر ، ولكن نكتفى بما ورد فى القرآن من اشارات فى هذا المجال .

وللقرآن الكريم وسائله الخاصة فى التعبير عن رقى العمارة الفرعونية .

فكلمة (مدائن) لم تأت فى القرآن إلا وصفا للمدن المصرية فقط

« قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين » « قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . . فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين »[٢٧]

وعلى كثرة ما هو مكتوب على العمارة الفرعونية فان الاهتمام انصب على المعابد والآثار الدينية الباقية . ولكن القران يعطينا معلومة هامة عن رقى العمارة فى المدن المصرية إلى درجة أنها لم تعد مجرد (مدن) بل (مدائن) وان هذه (المدائن) كانت منتشرة على طول العمران المصرى آهلة بالسكان وبالسحرة وبالجنود .

■ □ ■

وكلمة « المدينة » جاءت فى القرآن أربع عشرة مرة ، جاءت أربع مرات عن يثرب المدينة . وجاءت خمس مرات عن مدن متفرقة ، وجاءت خمس مرات عن المدن المصرية فى عصرى يوسف وموسى[٢٨]

وإذا أضيف ذلك إلى كلمة (مدائن) المصرية لأصبح لدينا شاهد من القرآن على رقى العمارة والمدنية فى مصر القديمة

■ □ ■

و (الصرح) يعنى البناء الشاهق ، ووجود تلك النوعية من ناطحات السحاب أمر غير متوقع فى العصور القديمة . ولذلك وردت كلمة (صرح) فى القرآن اربع مرات فقط مرتان منهما عن سليمان . وقد كانت الجن تخدمه يعملون له مالا يستطيع البشر الاتيان به . ومرتان عن ذلك البناء الشاهق الذى أمر الفرعون وزيره هامان ببنائه كى يناطح السحاب ويستطيع أن يرى رب موسى

« وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السماوات فاطلع إلى إله موسى » « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى »(٢٩)

وبغض النظر عن كفر فرعون فاننا نستفيد من الآيتين ان العمارة المصرية القديمة بلغت شاوا بعيدا عن التقدم . ولولا أن فرعون كان يعرف مقدرته فى انشاء مثل ذلك البرج العالى ما طلب ذلك من هامان على رؤوس الأشهاد .

وربما كانت مقدرته على ذلك هى التى دعته إلى التطرف فى ذلك القول الكافر .

ويكفى أن تلك المقدرة على انشاء الصرح لم تأت فى القرآن إلا لسليمان الذى كانت الجن يعملون له ما يشاء

ومنها ذلك الصرح الزجاجى الممرد من قوارير والذى ادهش ملكة سبأ[٣٠]

اما عن الصرح الذى طلب فرعون انشاءه فقد كان من الأحجار الحمراء

. فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا »

اى كانت صناعة الاحجار معروفة فى مصر منذ آلاف السنين .. ''

■ □ ■

وكلمة (الأوتاد) جاءت فى القران ثلاث مرات مرة واحدة فى وصف جبال الارض التى تمنع القشرة الارضية من ان تميد بمن عليها

. « ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا »

وفى المرتين الآخريين جاءت الكلمة وصفا لفرعون موسى :

« كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد » « وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد »[٣١]

فالقران يصف المنشات الفرعونية بانها اوتاد مثل الجبال .

■ □ ■

وعناصر المكان اثرت على امراة فرعون المؤمنة وتركت بصماتها على دعائها لله فهى تقول

« رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين »[٣٢]

فالحصول على بيت فى الجنة - بلا فرعون فيه - أول ما بدأت به دعاءها .

ويبدو أن فرعون موسى كان مهتما بالعمارة قدر اهتمامه بتخويف الناس حتى زوجته ..

ولكن أين آثاره الباقية ؟ الاجابة فى القرآن أيضا ..

يقول تعالى فى نهاية ذلك الفرعون

« ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه
وما كانوا يعرشون »(٣٣)

وكل عمائر فرعون وقومه وجنده وآله أصبحت خرابا بعده .
وانطبق عليها قوله تعالى عن ثمود .

« فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا
دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم
خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم
يعلمون »(٣٤)

ولم يتعظ فرعون وقومه بنصيحة مؤمن آل فرعون حين قال لهم

« يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم
الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد
وثمود » . .

دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون بينما ترك وادى النيل سليما بما فيه

« من جنات وعيون وزروع ومقام
كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين »(٣٥)

■ □ ■

الحيـــاة الاقتصـــادية :

فى القرآن اشارات متفرقة ولكن غنية عن تفصيلات الحياة الاقتصادية فى مصر القديمة . فالزراعة فى مصر قديمة قدم الاستيطان الانسانى على هذا الكـوكب . وتتاثـر هذه الـزراعة - ولا تزال - بكمية المياد المتاحة من الفيضان وحين راى الملك الهكسوس رؤياه كان تعبير يوسف عنها انه

« قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » . وانتهى الأمر بأن أسند الملك ليوسف شئون الاشراف على الزراعة والتموين فى مصر « قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء »(٣٦)

والمفهوم من الآيات ان تقام مخازن ضخمة تستوعب ايراد مصر من القمح والشعير والأرز خلال سبع سنوات يتم فيها تخزين السنابل لكى تحفظ الحبوب داخلها من احتمالات التسوس والفساد ويستلزم ذلك اشرافا كاملا دقيقا على جمع المحاصيل

من كل مكان وعلى نقلها إلى صوامع التخزين ، وقد كانت تلك الصوامع مثل أقماع السكر كما يذكر مؤرخو الحضارة المصرية القديمة .

ويستلزم ذلك ـ أيضا ـ عمالة ضخمة وإدارة متكاملة في التجميع والتخزين ثم في أمور البيع والتسويق . ثم في تقدير الوارد والمنصرف . والاحتياجات الفعلية والاحتياطي والانتاج المستهدف والاستهلاك اليومي والشهري والسنوي . والمنتظر أن يتم تسجيل ذلك كله في حسابات وخطط وبرامج طيلة زمن يقدر بأربعة عشر عاما ..

ويتم بذلك عبور هذه السنوات الخطيرة حين يضطر المصريون إلى الاقتصاد من سنوات الرخاء السبع الأولى . ثم يأتي عام بعد سنوات المجاعة يهل فيه الخير ويأكلون ويعصرون المشروبات ، « ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » .

■ □ ■

واشارات أخرى عن التجارة وردت في قصة يوسف . فالبيع والشراء كان بالنقد بالدراهم وكان بتبادل البضاعة ببضاعة أخرى .

ويوسف نفسه حين ألقى في الجب وعثرت عليه القافلة بأعود بدراهم معدودة ، وكان الذى اشتراه من مصر « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » وواضح أنه لم تكن هناك تسعيرة بدليل أن صبيا في مثل جمال يوسف بيع بثمن بخس لأن القافلة كانت فيه من الزاهدين أى ترغب في التخلص منه بأى طريقة .

وحين كان يأتي أخوة يوسف كانوا يحضرون معهم بضائع

يبادلونها بالحبوب ، وكلمة بضاعة لم ترد فى القرآن إلا فى سورة يوسف .

ومنها نفهم أن البضائع كانت تباع وتشترى بالنقد وذلك فى حالة يوسف السابقة حين كان بضاعة فى نظر الذى عثر عليه فى الجب .

« « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة » .

ثم كانت البضائع ثمنا للحبوب بطريق التبادل .

وحتى يجعل يوسف اخوته يعودون أوعز إلى عماله :

« وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون »

وفيما بعد :

« ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا »

ونفهم أن الحبوب كانت تكال بالكيل ، وكانت أدوات الكيل هى السقاية والصواع ، وأن المعروف أن المشترى يستسمح فى أن يوفى له البائع الكيل .

« فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا » .

وحين خطط يوسف لاحتجاز أخيه الشقيق عول على اتهامه بالسرقة .

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا واقبلوا عليهم

ماذا تفقدون ؟ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير » .

ويبدو أن وحدة البيع والشراء فى عهد يوسف كانت حمولة البعير ، وأنها كانت النصاب المسموح به لكل فرد يقدم للتزود من الحبوب ، أى أن نظام البيع بالبطاقة التموينية بدأ به يوسف فى ذلك الزمن السحيق .

ودليلنا أن أخوة يوسف ترجوا أباهم أن يسمح لهم بأن يبعث معهم بأخيهم ـ شقيق يوسف ـ حتى يزدادوا بوجوده كيل بعير .

« قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير » .

■ □ ■

وقد تكرر مجىء أخوة يوسف طلبا للمؤونة مما يدل على أن المجاعة لم تؤثر على مصر وقتها فقط وانما أثرت على الأقطار المجاورة التى تعيش على التبادل التجارى مع مصر . وعلى الحدود الشرقية اقيمت قرى فيها الفنادق لراحة التجار والمشترين .

وكانت تلك القرى المصرية تحت الاشراف المباشر ليوسف وقد قال لاخوته يستميلهم « ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين » .

أى أنه استمالهم بالكيل الوافى وأنزلهم فى منزل مريح .

وحين اتهمهم بالسرقة ـ وأثبت التهمة على أخيه الشقيق قال لخوهم الأكبر لأخوته .

« ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون »(٣٦) .

فالقوافل كانت تتوقف عند القرى التى على الحدود وهناك يقيمون فيها ويحدث التعارف وتنتشر الأخبار ، ولذلك طلب ابناء يعقوب منه آن يذهب بنفسه إلى تلك القرية المصرية التى كانوا ينزلون فيها ويستوثق من آهلها آن آبناءه صادقون فيما يخبرونه به عن اتهام آخيهم بالسرقة .

■ □ ■

ومع الضجيج الذى آحدثه فرعون موسى فاننا نستطيع آن نتلمس فى الآيات بعض الاشارات عن الحياة الاقتصادية فى عصر الرعامسة .

واهمها بالطبع ذلك الرخاء الاقتصادى الذى تركه خلفه فرعون وجنده . وقد وصفه القرآن آروع وصف فقال :

« فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين »

فالقرآن يصف الحقول المصرية وقتها بآنها كانت جنات . ويصف وفرة المياه بآنها عيون آى كان الرى بلا مجهود حيث يغطى النيل الحقول فتكون مثل عيون الأرض ، والمحصول كان كنوزا والوضع كان مقاما كريما .

وبدلا من آن يقوم فرعون بشكر النعمة افترى وتجبر وقد آذاقه الله بعض المحن حتى يرجع فكان لا يرعوى ، يقول تعالى :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون »(٣٧)

والشاهد فى الآية قوله تعالى

« ولقد أخذنا آل فرعون » .

ونفهم منه أن فرعون وآله كانوا يملكون الأرض والثروة ويتحكمون فى المحصول ، فإذا حدث نقص فيه تناقصت ثروتهم .. أما الفلاح المصرى وقتها فقد كان ملكيته لأدوات الانتاج لا تزيد كثيرا عما تملكه ماشية الحقل .

■ □ ■

وفى الوقت الذى كان فيه الفلاح يجلد بالسياط إذا أخفى قدرا من المحصول لطعامه ، فان الفرعون و آله كانوا يتجملون بالحلى فى أبهى زينتها ويصحبونها معهم إلى قبورهم .

ويذكر مؤرخ عصر الرعامسة أن رمسيس الثالث كان له ضابط خاص لحمل الامدادات من الشراب والطعام فى اناء كبير من الذهب سعته ثلاثة لترات »[٣٨]

لذلك لا نعجب من فرعون موسى وهو يتندر عليه قائلا :

« فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب »[٣٩]

لأن فرعون يعتبر التحلى بالذهب من دلائل علو المكانة ، ويشاركه فى الرأى قومه بالطبع ، ولذلك فان فرعون وقومه حين كانوا يطاردون بنى اسرائيل كانوا يرتدون أبهى وأثمن مالديهم من حلى وجواهر .

وألقى الموج بجثثهم إلى الشاطىء وعليها ما عليها من ذهب وصارت من نصيب بنى اسرائيل ، وسوّل لهم السامرى أن يجمعوا ذلك الذهب الفرعونى ليصيغوا منه عجلا ذهبيا يسترجعون به عبادة العجل الأبيسى ، يقول تعالى :

« واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار »

واعتذر بنو اسرائيل لموسى قائلين :

« ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى »(٣٩)

■ □ ■

وإذا كان الفرعون يتزين بالحلى فلابد أن يتفنن الصناع فى اتقانها والآثار الذهبية خير شاهد على ذلك .

■ □ ■

ان المجتمع المصرى ـ الذى يبدو ساكنا ـ قد طبع بنى اسرائيل بطابعه الدينى الاجتماعى الاقتصادى ، وحين تركوه حملوه فى قلوبهم ليس فقط فى حنينهم للآلهة المصرية القديمة حين رأوا المعبد الفرعونى ، ولا فى اتخاذهم العجل وتقديسهم لأوزيريس ـ عزير ـ ولكن فى طبيعة السلوك المتواكل الذى يعتمد على الحاكم أو الحكومة فى كل شىء . فتراهم يطلبون من موسى كل شىء ، بل يطلبون منه أن يدعو ربه ليجيب لهم مطالبهم وحين أكرمهم الله بالمن والسلوى ضجروا منهما واشتاقوا إلى الطعام المصرى والمحاصيل الزراعية المصرية فقالوا :

« يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير »(٤٠)

فى سبيل العدس المصرى تناسوا المن والسلوى .. !!

وظلوا على تواكلهم على موسى ورب موسى ورفضوا أن يقوموا

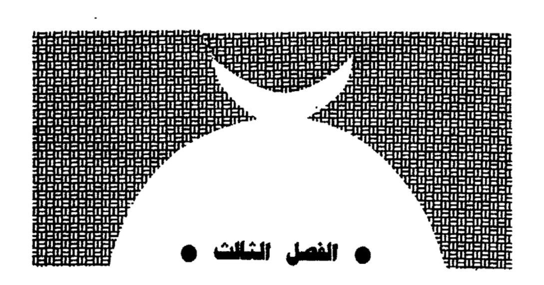
باقتحام الأرض المقدسة لأنهم يريدون من سكانها أن يتخلوا عنها طواعية .

« قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون »(٤٠)

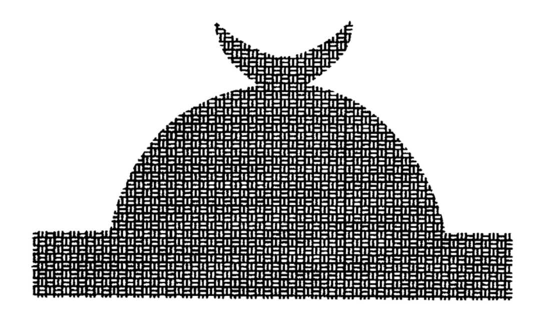
لقد كانت المؤثرات المصرية في ذلك الجيل أعمق من أن تتأثر بكل معجزات موسى لذا كان العلاج الوحيد أن يظلوا تائهين أربعين عاما حتى ينقرض ذلك الجيل وينقرض معه تأثره بالمجتمع المصرى القديم ..

تُرى كم عاما نحتاجها نحن لننهض ونلقي عنا رواسب التواكل .. و (معلهش) ؟ ..

■ □ ■



مواعظ ودروس



قصص القرآن لم يأت للتسلية وانما للاعتبار والتفكير . ومهما احتوى القصص القرآني على اعجازات تاريخية فانه لا ينبغي أن يصرفنا عن هدفه الأساسي وهو الاعتبار والموعظة ، وذلك هو الهدف الأسمى من علم التاريخ فكيف بقصص القرآن .

كما يقول تعالى تعقيبا على قصة يوسف :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »

فانه تعالى يقول عن فرعون وهلاكه :

« ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى »(١)

وقد آن الأوان لنعتبر ونخشى .. !!

■ □ ■

أولا :

قصة فرعون تطرح قضية الاستخلاف التى تدور حولها علاقات الدول وصراعاتها ..

كل دولة قوية فى العالم تطمح فى أن تسيطر على المنطقة التى تقع فيها ، وربما إلى السيطرة على العالم . وفى عصر فرعون كان العالم المتحضر المعروف محصورا فى مصر وما حولها لذا فان فرعون حين علا فى مصر فانه فى الحقيقة علا فى الأرض .

« ان فرعون علا فى الأرض » ..

وترجم فرعون قوته إلى ظلم فحفر قبره بيديه ، قال بنو اسرائيل لموسى .

« أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » .. وحدث فعلا أن تحقق وعد الله لبنى اسرائيل حين قال « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض » ..

يقول تعالى عن تحقيق وعده :

« وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون »(٢)

لقد مكن الله فى الأرض لامبراطوريات كثيرة فاستخدمت قوتها فى الظلم فتحولت عناصر قوتها إلى بؤر ضعف قضت عليها فى النهاية ، وهذا هو الدرس الهام فى سقوط الامبراطوريات .

ولكن تظل قصة فرعون أهمها لأن العنصر القوى الظالم بالغ القوة عنيف الظلم ولأن العنصر الضعيف بالغ الضعف ثم أتت القوة الالهية لتنحاز إلى جانب المظلوم الذى وقف يواجه الظالم بالصبر والصلاة .. !! وتحولت عناصر القوة الفرعونية إلى مراكز ضعف التهمته فى النهاية .

وفى مواجهة طغيان فرعون وقف موسى يوصى قومه بالصبر والتوكل على الله ـ وهم عزل من كل قوة إلا الصبر والاستعانة بالله .

« قال موسى لقومه استعينوا بالله
واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء
من عباده »(٢)

وحين تطرف فرعون فى ايذائهم إلى درجة أخاف أغلبية قوم موسى من الالتفاف حوله أقام موسى الصلاة مع قومه وواصل مسيرة الصبر والتوكل على الله .

« وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم
بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فقالوا
على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم
الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم
الكافرين » . .

ثم بدأت مجموعات الصلاة وتبعتها البشرى للمؤمنين .

« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا
لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة
وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » . .

وفى هذه الصلاة كان موسى يدعو الله على فرعون وآله ، وهارون يؤمِّن على دعائه .

« وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ؟ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

وأجاب الله دعاءهم :

« قال قد أجيبت دعوتكما » . .[٣]

انتصر بنو اسرائيل على فرعون بالصبر والصلاة « وتمت كلمة ربك على بنى اسرائيل بما صبروا » .. وكانت الوصية الذهبية لبنى اسرائيل « واستعينوا بالصبر والصلاة » .. ولنا نحن أيضا يقول لنا رب العزة :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين »[٤]

وعندما أنجى الله بنى اسرائيل من فرعون عادوا إلى عقائدهم الخاسرة فأهلكهم الله فى التيه ..

ونعود إلى فرعون وقد عاقبه الله بالنعم التى منحها الله له فاغتر بها ..

اغتر فرعون بالنيل يجرى من تحت قدميه « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا يبصرون ؟ »

ولكن الله تعالى جعل النيل يعمل ضد فرعون .

بدأ ذلك حين حمل النيل التابوت ـ وبه موسى رضيعا ـ الى قصر فرعون ليقوم فرعون نفسه بتربية موسى ورعايته .

ثم واصل النيل مؤامراته ضد فرعون فحمل إلى فرعون وآله الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وكانت تلك مجرد

انذارات فلما لم يتعظ بها فرعون وآله كان غرقه أخيرا فى اليم[٥]

ويلاحظ أن كلمة « اليم » لم تأت فى القرآن إلا فى قصة موسى بمعنى النيل وبمعنى البحر .

وعموما فالبحر فى القرآن يعنى النهر والبحر المالح :

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج »[٦]

والقرآن يستعمل كلمة « اليم » وصفا للنيل وللبحر معا فى قصة موسى فيقول :

« أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له »

ويقول :

« فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم »[٧]

ويقول أيضا عن غرق فرعون وآله « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت »[٨]

ذلك قد يعنى احتمالا ضئيلا بأن يكون غرق فرعون وآله فى النيل وليس فى البحر الأحمر .

ومهما يكن من أمر فان المفهوم والشائع أن يكون غرقهم فى البحر الأحمر يعزز ذلك أن فرعون طاردهم وهم يفرون أمامه ناحية الشرق « فاتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم »[٨]

والمعتقد أن مصر شهدت فيضانا أو طوفانا فى نفس الوقت وذلك

معنى أن النيل قد شارك فى عملية تدمير فرعون وآله ومنشآته وذلك الرأى يجد دليلا فى القرآن .

« ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون .(٨) وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر »(٨)

والذى نريد التذكير به أن النيل كان نعمة من الله لفرعون فلما طغى حوله الله الى نقمة عليه .. وكفران النعمة أسرع طريق لفقدانها ، ومن العادات السيئة للبشر أن ينسوا هذا الدرس .. يقول تعالى :

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ؟ »(٩)

■ □ ■

لقد بلغ من سخرية الله بفرعون أن استخدمه فى حماية موسى وتنشئته ..

وفى ذلك درس آخر للذين يتوكلون على الله ويثقون فى وعده الذى لابد أن يتحقق ..

حين خافت أم موسى على وليدها الرضيع أوحى الله لها « أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم »

لم يقل لها فاذا خفت عليه فخذيه فى أحضانك .. !! بل إرميه فى النيل ، وكان النيل وقتها فى الفيضان لأن القرآن وصفه بجريان اليم ..

ثم جاء وعد الله للأم الخائفة فقال « إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين » ..

وحمل النيل الأمانة إلى قصر فرعون « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا »

هل هناك سخرية اكبر من ذلك ؟ .. على ان التوكل على الله يعنى ان يتغلب الانسان على احزانه ومخاوفه ، ولا يعنى فى نفس الوقت ان يتكاسل الانسان ويتواكل ، بل عليه ان يتصرف ما استطاع ويتوكل على الله .

وهكذا فان ام موسى بعد ان القت بفلذة كبدها فى النيل امرت اخته ان تتبع التابوت ، وظل قلبها على لهفته « وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ..

وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون » ..

ثم كانت النهاية ان رفض الرضيع جميع المرضعات وبذلك عاد لأمه يتربى فى كنفها ومع قومه ولكن تحت رعاية الفرعون نفسه وبذلك تحقق وعد الله لأم موسى ..

« وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(١٠)

وصدق الله العظيم « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » ..

■ □ ■

وقضية الاستخلاف التى كانت محور قصة فرعون وموسى لم تنته فصولا ..

وفى بداية عهد المؤمنين بالمدينة جاء وعد الله لهم بالاستخلاف والتمكين فى الأرض ، وكان وعدا مشروطا :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »(١١)

وتحقق وعد الله طالما أخلص المسلمون لدينهم ، وحين زحفت العقائد القديمة من تقديس البشر وعبادة الأئمة أصبحوا غرباء فى أوطانهم يعيشون على مجد الماضى دون محاولة حقيقية لدراسة الأسباب وعلاج الأمراض .

ولا يزال وعد الله لنا بالاستخلاف قائما إذا تحققت فينا شروطه ، ولكن متى ؟

البداية تقع على عاتقنا :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١١)

■ □ ■

ثانيـاً :

لقد ذكر القرآن كلمة فرعون أربعا وسبعين مرة .. فهو أكثر المشركين نصيبا فى حديث القرآن ..

بل هو فى الواقع إمام خطير للمشركين الطغاه إلى قيام الساعة وصاحب وضع خاص يستحق أن نتوقف معه ..

إن فرعون هو آخر الذين أهلكهم الله ، وسبقه على الطريق أقوام نوح وعاد وثمود ولوط .. الخ .

وبعده نزلت التوراة بصائر للناس ولذلك فان فرعون بهذا يكون إماما لكل مشرك يأتى بعده ، ومعه بالطبع جنوده ، يقول تعالى :

« فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا يُنصرون » . .

إلى ان يقول تعالى :

« ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون » . .[12]

كان فرعون فى مجده يسأل موسى عن القرون الأولى : « قال فما بال القرون الأولى ؟ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولاينسى .. »[13]

وذكّره مؤمن آل فرعون بمصير الأحزاب من القرون السابقة فلم يتعظ إلى ان لحق بهم وصار إماما لكل الضالين بعده ..

لقد استحق فرعون بجدارة هذه المكانة حين طغى وتطرف فى الكفر

إلى درجة انكار الفطرة وانكار الألوهية وواصل مسيرة العناد إلى آخر الشوط حتى كان فى آخر حياته يطارد نبى الله والمظلومين معه .. ومن القرآن الكريم نتعرف على تلك المكانة الخاصة لفرعون بعد موته ..

١ ـ فالله قد أنجى جسده ليكون عبرة لمن يأتى بعده ، وقد قيل له عند موته « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية[١٤] وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون »

الجسد الانسانى بعد الموت يعتبر سوءة ينبغى اخفاؤها عن الأعين بالدفن ، وقد تعلم ابن آدم حين قتل أخاه كيف يدفن جثة أخيه .. « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى » ؟[١٥] من اكرام الله لبنى آدم أن تدفن الجثة الآدمية ، ولكن فرعون موسى محروم من ذلك ، وجثته معروضة حتى الآن فى المتحف يراها الناس .

■ □ ■

٢ ـ وترك فرعون جسده ودخل إلى البرزخ وهناك يتعرض لنوع من العذاب يستمر إلى قيام الساعة ومعه آله ، أما حين تقوم الساعة فيدخل أشد العذاب .

« وحاق بآل فرعون سوء العذاب ،
النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم
تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد
العذاب . . »[١٦]

إذن فى البرزخ لهم سوء العذاب .. ويوم القيامة لهم أشد العذاب هذا بينما نجد للمشركين الآخرين وضعا آخر .

إذ يكون البرزخ بالنسبة لهم موتا يفقدون الاحساس أثناءه بكل شىء إلى يوم البعث .

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب
ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ،
كلا أنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم
برزخ إلى يوم يبعثون »[١٧]

وعند البعث يستيقظ المشركون فى رعب ودهشة

« ونفخ فى الصور فإذا هم من
الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا
ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد
الرحمن وصدق المرسلون »[١٨]

وعند البعث يسالون متعجبين بعد نومهم الطويل الذى مر عليهم كانه ساعة من الزمان .

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون
مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا
يؤفكون . . وقال الذين أوتوا العلم
والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم
البعث ، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم
لا تعلمون »[١٨]

حرم الله على فرعون ذلك النوم فى البرزخ وجعله يقضيه حيا فى عذاب مستمر إلى ان تقوم الساعة وهنك اشار إلى مشاعر فرعون وآله وهم فى البرزخ يتحسرون على ما حدث يقول تعالى .

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا
فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم
الوارثين . . ونمكن لهم فى الأرض ونرى

فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا
يحذرون »[١٩]

كان فرعون فى حياته يحذر من بنى اسرائيل لأنهم لا يعتقدون فى ألوهيته ولم ير فى حياته إلا تعذيبهم على يديه ، ولكن بعد غرقه رأى فى البرزخ منهم ما كان يحذر فى حياته وفى سلطانه .

لقد أضاع فرعون حياته فى سبيل الشيطان ومات فى سبيل الشيطان يطارد ضعافا من البشر بينهم مؤمنون واثنان من أنبياء الله .

وفى المقابل فهناك من المؤمنين من يموت فى سبيل الله ، وأولئك لا ينبغى أن نعتبرهم موتى بل هم فى البرزخ أحياء عند الله يرزقون .

« ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله
أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون »
ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله
أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين
بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون
بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم »[٢٠]

فالمقتولون فى سبيل الله يحسون باخوانهم فى الدنيا ويتمنون لهم نفس النعيم .

أما فرعون و آله فى البرزخ فهو يعيش فى حسرة وقد رأى كيف أن كيده قد أوقع به .

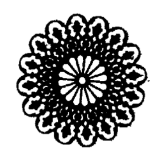
وما عدا الفريقين فالبرزخ موت يصحو منه البشر فجأة عند البعث فيظنون أنهم ماتوا بالأمس القريب لأن فترة البرزخ لا زمن فيها فتستوى الألف عام فى البرزخ مع الألف دقيقة ، كلها يوم أو بعض يوم أو كلها نوم مؤقت .

« ويوم يحشرهم كأنه لم يلبثوا
إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم »
« كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية
أو ضحاها »(٢١)

٣ ـ ثم يأتى فرعون يوم القيام إماما لقومه يدخل بهم النار :

« يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم
النار وبئس الورد المورود »(٢٢)

□ □ □



ثالثاً :

ان فرعون هو السلف غير الصالح لكل مشرك ، ان كلمة « السلف » لم تات فى القرآن إلا مرة واحدة وعن فرعون فقط . يقول تعالى عن فرعون وآله « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين »[٢٣]

وكان القرآن يصف المشركين العرب بانهم يسيرون على درب فرعون .

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم
كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم . . »
« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم
كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم »[٢٤]

إن استاذية فرعون فى الكفر تتمثل فى أن تطرفه فى العناد وصل به إلى اعلانه انكار الألوهية وانكار فطرته التى فى داخل نفسه تؤمن بالاله خالق كل شىء .

كان قوم فرعون يؤمنون بالوهية فرعون ولكن يؤمنون بوجود آلهة لفرعون نفسه معه وقد قالوا له .

« أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى
الأرض ويذرك وآلهتك »[٢٥]

ولكن فرعون مالبث ان تطرف فى كفره ليواجه دعوة موسى وليحاول أن يقتلع من اتباعه الايمان بالخالق تعالى ، فاعلن فى مؤتمره .

« يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله
غيرى » . . « فحشر فنادى فقال
أنا ربكم الأعلى »[٢٦]

ولكن عندما أحاطت الأمواج بفزعون عاد سريعا إلى فطرته الأولى مثل كل انسان عند الشدة فقال لا إله إلا الله .. « حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » .

وذلك الايمان جاء متأخرا فلا محل له من الاعراب .. لذلك قيل له « آلآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين »(٢٧)

وعلى طريق فرعون يسير كثير من البشر يظل فى عصيانه حتى إذا جاء الموت أعلن لملائكة الموت إيمانه بلا جدى « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال انى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار »(٢٧) .

وعلى طريق فرعون يتطرف بعضهم إلى القول بانكار الالوهية مع أنه لم يصل إلى درجة فرعون من القوة والتمكين ، ومصيره إذا جاءه بعض الاسهال أو الامساك أو المغص أن يصرخ قائلا : يارب .. ثم إذا شفاه الله عاد لكفره كأن شيئا لم يكن .. « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرَّ كأنه لم يدعنا إلى ضر مسه »(٢٨)

حقيقة الأمر لا يوجد انسان ينكر الألوهية مهما أعلن بلسانه ، وذلك لأن الفطرة فى داخله تؤمن بالله إلها واحدا لا شريك له ..

« فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »(٢٨)

لقد فطر الله الناس على الايمان بالله وحده إلها ، ولكن لا يلبث الشيطان أن يغطى هذه الفطرة السليمة بالاعتقاد فى آلهة أخرى مع الله .

وذلك هو (الكفر) وهو أيضا (الشرك) .. (الكفر) لأن معنى الكفر هو التغطية والستر ، والكافر قد غطى فطرته الحقيقية بالاعتقاد فى آلهة مع الله .

وهو أيضا « مشرك » لأنه جعل الألوهية شركة بين الله وغير الله ولأنه أشرك مع الله آلهة أخرى .

فالكافر فى الحقيقة يؤمن بالله ولكن يغطى فطرته التوحيدية بالايمان بآلهة أخرى مع الله .

لذا يجتمع مع الكفر إيمان ، ولكن ذلك الايمان فى الكافر ناقص لا ينفع يوم القيامة عند الله لأن الله يطلب الاخلاص له وحده ، يقول تعالى عن إيمان الكافر وعدم جدواه « قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم »(٢٩)

والمشرك ايضا يؤمن بالله ويؤمن مع الله بآلهة أخرى ، لذلك فالله تعالى يقول عن أغلبية البشر ..

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون »(٢٩)

وهكذا فالكفر ليس الانكار المطلق للألوهية ولكنه الشرك بالله . فالشرك والكفر مترادفان ، ولذلك يقول ذلك الرجل الحكيم من آل فرعون .

« تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم »(٢٩)

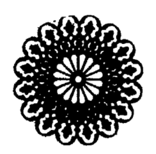
فالكفر بالله هو الشرك به ولا فرق .. ويقول تعالى :

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر »(٢٩)

وذلك درس آخر نتعلمه من قصة فرعون .. ان الفطرة فى داخل الانسان أكبر من أن يستطيع أحد الغاءها .. قد يستطيع تغييرها لتكون كفرا أو شركا بأن يغطيها بالاشراك بالله ، ولكن يظل فى قرارة نفسه مؤمنا بالله ، ولكن ذلك الايمان الناقص لا ينفع يوم القيامة ..

لقد فهم مؤمن آل فرعون الدرس .. ولكن فرعون تذكره فقط فى النهاية فضاع ..

■ □ ■



رابعاً :

حين أدركه الغرق صرخ قائلا « آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين »

أى أعلن فرعون اسلامه عند الموت .. هل كان الاسلام هو الدين الذى دعا أليه موسى ؟

هو الاسلام الذى نزلت به كل الرسالات السماوية ..

« ان الدين عند الله الاسلام » . .
« ومن يتبغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »(٣٠).

والاسلام هو الانقياد التام لله وحده . وإلى ذلك كانت دعوة الأنبياء بكل اللغات .

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »(٣)

ونطق الاسلام باللغة الهيروغليفية فى عصر موسى .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم . ولقد أرسلنا موسى بآياتنا »(٣١)

■ □ ■

وقبل موسى كان كل نبى يعلن اسلامه أو انقياده لله وحده باللغة التى يتحدث بها هو وقومه . قالها نوح « وأمرت أن أكون من المسلمين »[٣١] وقالها ابراهيم « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين »[٣١] وكان ابراهيم يوصى أبناءه بالاسلام ويتواصى أبناؤه بالاسلام .

« ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب
يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين
فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون »[٣١]

ولكن ما هو نصيب مصر من ذلك كله ؟

ان واقع مصر التاريخى يجزم بوجود أنبياء لم يرد ذكرهم فى قصص القرآن ، بالاضافة إلى نصيبها من الأنبياء الذين عاشوا فيها مثل يعقوب ويوسف وموسى وهارون .

عاش يعقوب أواخر حياته فى مصر وتجمع حوله الأسباط ـ أولاده ـ فأوصاهم بالتمسك بالاسلام ، وتلك فضيلة اسلامية أن يوصى الأب أبناءه ـ وهو يموت ـ بالاسلام .

يقول تعالى :

« أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب
الموت قال إذ قال لبنيه ما تعبدون من
بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك
ابراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا
ونحن له مسلمون »[٣١]

وكان يوسف نبيا للاسلام نطق باللغة المصرية القديمة ، وقال فى أوج سلطانه « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل

الأحاديث فاطر السماوات والأرض آنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين »(٣٢)

والسحرة حين آمنوا أعلنوا اسلامهم ورفضوا تهديدات فرعون قائلين « وما تنقم منا إلا آن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين »(٣٢)

وطبعا قالوا

« وتوفنا مسلمين » باللغة المصرية القديمة وليس باللغة العربية ..

وكان موسى يشجع قومه ليواجه اضطهاد فرعون فيقول لهم « يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين »(٣١)

لذلك لا تستغرب آن يعلن فرعون اسلامه عند الموت على آنه دين بنى اسرائيل .. « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين »

ونطق الاسلام فى الرسالة الخاتمة باللغة العربية .

■ □ ■

خامساً :

ونستريح فى النهاية مع قصة يوسف :

ذلك النبى الذى ذاق الظلم والسجن فصبر حتى أنعم الله عليه بجزاء المحسنين .. وتقوم قصة يوسف على عدة منامات .. وتطرح قضية الأحلام الصادقة .. من يراها ؟ وتأويلها ..

لقد رأى يوسف رؤيا صادقة « **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** » وتحقق المنام فسجد له اخوته الأحد عشر ومعهم والده « **ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا** » .

ورأى رفيقا يوسف فى السجن منامين وتحققا حسبما فسرهما يوسف لهما . ورأى الملك رؤيا تحققت وأشرف يوسف على تنفيذ المطلوب من تفسيره لتلك الرؤيا ..

لم يكن رفيقا يوسف أو الملك من المسلمين أو من الصالحين حين رأوا المنام - على الأقل -

وذلك يعنى أن الرؤيا الصادقة قد يراها النبى أو يراها أى إنسان آخر

وتأتى الرؤيا فى صورة رمزية تستلزم تفسيرا .

فيوسف رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر يسجدون له وكان التفسير أن يسجد له أخوته ووالداه ..

ورفيقاه فى السجن رأى أحدهما أنه يعصر خمرا ، وكان التفسير أنه سيكون ساقيا للملك .

ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه وكان التفسير أن سيُصلب لتأكل الطير من رأسه ..

ورأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف . ورأى سبع سنابل يابسات يأكلن سبع سنابل خضر .

وكان التفسير سبع سنوات رخاء يستهلكهن سبع سنوات من المجاعة ثم عام يزداد فيه الرخاء بعد سنوات المجاعة ..

ولكن من يستطيع تفسير الرؤيا الصادقة إذا وُجدت ؟

إن الرؤيا الصادقة إخبار بالغيب الذى سيتحقق فى المستقبل ، لذا ففيها جانب من الاعجاز الذى قد يؤتيه الله لبعض الأنبياء .. وقد أوتى يوسف هذه المقدرة دليلا على نبوته .. يقول تعالى عنه :

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث »(٣٣)

وشكر يوسف ربه فقال : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث »(٣٣)

وكان تعبير يوسف للرؤيا الصادقة صحيحا وصادقا لأنه كان نبيا آتاه الله المقدرة على ذلك واجتهادنا فى تأويل الرؤيا الصادقة أو غير الصادقة يجوز فيه الصواب والخطأ ..

لقد عمل يوسف النبى فى خدمة ملك كافر ، وفى عصرنا الراهن يفتى بعض الصغار بتحريم العمل فى الحكومة التى تقول لا إله إلا الله

■ □ ■

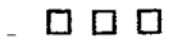
ولا يزال هناك متسع لمزيد من البحث والدروس من قصة يوسف وقصة موسى عليهما السلام .. والقرآن أعظم من أن يحيط بكنوزه عقل انسان واحد مهما أوتى من علم وذكاء .

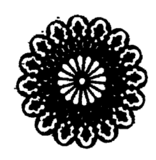
لذا فعطاء القرآن متجدد ومستمر ..

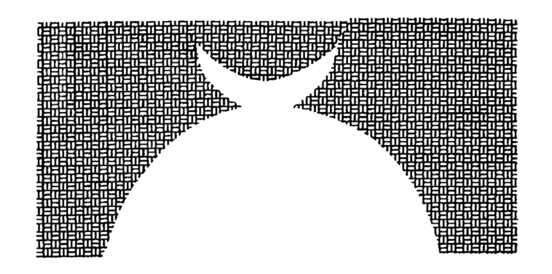
ولكن المشكلة أن القرآن كتاب لم يُقرأ بعد .. لأننا انشغلنا عنه بأشياء كثيرة ..

« الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء . . »

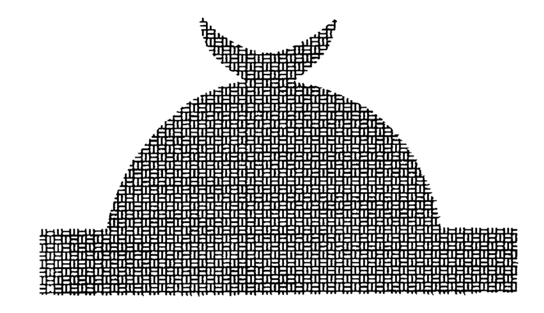
(الزمر ٢٣)







الخاتمة



(!) عرف الانسان تزييف الحقائق منذ آن عرف تدوين التاريخ :

وكتابة التاريخ منذ آن بدأت وهى تسير فى ركب السلطان تلهث وراءه لتكتب ما يحلو له آن يقال عنه .

وقد يقال آن الوثائق قد تكون أقرب للصدق ولكن الوثائق لا تسد كل الفراغات .

ولا تحكى ما قبلها ومابعدها ولا نعرف ظروف كتابتها ولا نستطيع التأكد اليقينى من صدقها .

وهكذا تظل هناك فجوة هائلة بين التاريخ الحقيقى الذى دار فى الدهاليز وعمق الظلام ، وبين التاريخ المكتوب الذى وصل إلينا يعبر عن وجهة نظر المؤرخ وعواطفه .

ومن هنا تظل الحقيقة التاريخية فى كتابات البشر حقائق نسبية يجوز عليها الصدق والكذب ولا يمكن التأكد من صدقها .

فعلى سبيل المثال يقول المؤرخ مثلا « ان السلطان أرسل رسالة إلى الملك الفلانى » هذه حقيقة تاريخية ذكرها مؤرخ قد يكون قريبا من السلطان مطلعا على سره مما أعطاه الفرصة لكى يورد هذه الواقعة التاريخية . ولكن وجود المؤرخ إلى جوار السلطان يعطينا الحق فى التشكك فيه وفى انحيازه للسلطان وتعبيره عنه أكثر من تعبيره عن الحقيقة التاريخية ..

وقد يكون المؤرخ بعيدا عن السلطة .. إذن فكل ما يكتبه عن السلطان يدخل فى إطار الشائعات والتقولات مما يزيد فى التشكك فى روايته ..

ثم تبدأ الاحتمالات ربما يكون السلطان قد أرسل الرسالة وربما كانت مناورة ، وربما لا علم للسلطان مطلقا بهذه الرسالة .. وربما وربما . وهكذا تظل الفجوة بين التاريخ الحقيقى والتاريخ المكتوب .

وتزيد هذه الفجوة فى التاريخ للمؤامرات السياسية ما نجح منها ومالم ينجح . والتاريخ السياسى فى أغلبه مؤامرات واتصالات سرية وعلاقات مريبة ومناورات وتحركات وهمية . والمكتوب عنها قد يذكر شيئا طفا على السطح ومن وجهة نظر الكاتب ، ولكن تظل أغلبية الحقائق بمناى عن قلم المؤرخ ..

ثم إذا افترضنا أن مؤرخا عثر على الحقيقة بأكملها ودونها . هنا ينتقل الشك إلى المؤرخ نفسه وإلى أمانته فى النقل وموقفه السياسى والحزبى والعقيدى والعاطفى من أبطال الحدث التاريخى .. الأمر الذى يجعل الشك هو الأصل فى النظرة للمؤلفات التاريخية . وتظل بها حقائق نسبية ..

■ □ ■

(٢) وتختلف الحال بالنسبة للقصص القرآنى .. فبالاضافة إلى آنه حقيقة مطلقة لاشك فيها فهو ينفذ للغيب .

ففى مكان ما و فى وقت محدد عقد اخوة يوسف مؤتمرا سريا للتآمر على أخيهم يوسف بسبب حسدهم له . لآن اباهم يحبه اكثر من حبه لهم . لم يعلم الآب بذلك الاجتماع السرى ولا بالذى دار فيه . ولكن الله كان محيطا بنجواهم وتامرهم . وذكر ذلك بتفصيلاته يوسف ٧ - ١٠ . ثم بعد ان قص سيرة يوسف واخوته قال فى النهاية يخاطب خاتم المرسلين من الله

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك
وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم
يمكرون » . (١٠٢/١٢)

ما ذكره القرآن كان غيبا . وما كان خاتم النبيين حاضرا له ولم يشهد ذلك الاجتماع السرى لآخوة يوسف وهم يمكرون بآخيهم .. ويقول تعالى ·

« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو
رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم
ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم
أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم
القيامة . إن الله بكل شىء عليم » :
(٥٨ / ٧)

التاريخ الحقيقى لكل انسان ولكل مجموعة من البشر يعلمه الله ويسجله علينا . ثم تآتى نسخ من هذا التاريخ لكل آمة ولكل فرد يوم القيامة ، وآحدنا حين يقرآ تاريخ حياته الدنيا يتذكر ما نسى .

« يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما
عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل
شىء شهيد » (٥٨ / ٦)

ومن هذا التاريخ المسجل فى علم الله كان قصص القرآن ينبىء عن غيب لا يعرفه إلا علام الغيوب .. فى وقت ما وفى مكان ما بقصر فرعون رفعت امرأة فرعون رأسها تدعو الله تقول :

« رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة
ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من
القوم الظالمين » (٦٦ / ٢١)

فرعون كان لا يدرى بما يحدث فى فراشه ، ولا يعلم ما فى قلب زوجته ، ولكن الله يعلم ، وقد سجل لنا أحاسيس هذه السيدة المؤمنة وخلد ذكراها ..

وهذه ناحية يتميز بها القصص القرآنى عن روايات المؤرخين السطحية ..

(٣) والقصص القرآنى يخبرنا بالأقوال والأفعال وبالأحاسيس التى أفصحت أو لم تفصح عنها الأقوال .. ويكفى أن نتابع التطور الطبيعى لمشاعر امرأة العزيز حين فاجأها زوجها فتنطق بين كرامتها المجروحة وبين خوفها على يوسف .. ومحاولة تبرئة نفسها :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءا
إلا أن يسجن أو عذاب أليم » :
(١٢ / ٢٥)

لم تطلب اعدامه ولكن آرادت عقابه .

ثم حين تذهب مع رغبتها للنهاية انتصارا لكرامتها وآنوثتها :

« فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته
عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره
ليسجنن وليكونًا من الصاغرين »

(١٢ / ٣٢)

ثم فى النهاية حين تتوب فى أروع ما يكون موقف التوبة وآمام شهود من علية القوم وفى بلاط الملك :

« قالت امرأة ٱلعزيز الآن حصحص
الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن
الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه
بالغيب وان الله لا يهدى كيد الخائنين .
وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة
بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور
رحيم »

(١٢ / ٥١ / ٥٣)

(٤) وبلاغة اللفظ القرآنى فى القصص إعجاز تاريخى مستقل ..

حين اتهم يوسف ـ وهو عزيز مصر ـ آخاه بالسرقة لكى يستبقيه معه ، كان تعليق اخوة يوسف على اتهام أخيهم بالسرقة :

« قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل »

(١٢ / ٧٧)

لم يقولوا « فقد سرق أخ « لنا من قبل » فالقرآن يعبر بلفظه

موجزة عن استمرار كراهيتهم ليوسف .. بعد أن أضاعوه بسنين طويلة

وحين قالوا ليوسف ـ وهم لا يعرفونه ـ « يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه »

رد عليهم يوسف :

« قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون :

لم يقل « معاذ الله أن نأخذ إلا من سرق متاعنا » .. لأن أخاه لم يسرق في واقع الأمر .. !!

ويستمر حقد الأخوة على يوسف الغائب إلى قبيل النهاية « ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون . قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم »

(١٢ / ٩٤ / ٩٥) .

يواجهون أباهم الضرير الحزين على ابنه المفقود بقولهم . « تالله انك لفي ضلالك القديم » .

أي أن حقدهم على يوسف تتأجج ناره كلما شهدوا أن حب أبيهم ليوسف يزداد تأججا ..

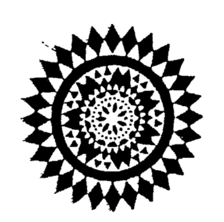
ومنذ أن عقدوا مؤتمرهم الآثم منذ كان يوسف طفلا قالوا :

« ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين » (٢١ / ٨)

أي وصفوا أباهم النبي بأنه في ضلال مبين واستمر هذا رأيهم فيه إلى قبيل النهاية . وجاءت النهاية حين وصل قميص يوسف فالقود

على وجه الأب المكلوم » فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم انى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » (١٢/ ٩٦/ ٩٧)

□ □ □



وقد تأتى لنا بلاغة القران بحكمة بين السطور :

فالقرآن يتحدث عن الاتهام من يوسف لأخيه بالسرقة وما جرى فيها فيقول :.

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم
استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا
ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك
إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء »
(١٢/ ٧٦)

الله تعالى يقول عن حيلة يوسف « **كذلك كدنا ليوسف** »

وحيلة يوسف كانت لا تخلو من تحايل الم يقل تعالى عن يوسف :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل
السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها
العير إنكم لسارقون » (١٢/ ٧٠)

وما كانوا سارقين

■ □ ■

(٥) وبلاغة القرآن فى القصص تظهر أيضا عند حذف اللفظ والاستدلال عليه بالقرينة يقول تعالى :

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن
وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة
منهم سكينا وقالت اخرج عليهن فلما
رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش
لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »

(١٢ / ٣١)

لقد أرادت امرأة العزيز أن تفاجىء النسوة بيوسف .

وصورت الآية هذه المفاجأة فى أسلوبها التصويرى حين أوجزت وحذفت بعض الفقرات لتعطى طابع المفاجأة . تقول الآية :

« « وآتت كل واحدة منهن سكينا »

وتترك القارىء يتخيل أولئك النسوة المترفات فى صخبهن وثرثرتهن وهن لا يعلمن شيئا عن المفاجأة . وتأتى النقلة إلى داخل القصر وامرأة العزيز تأمر يوسف بعيدا عن مكان النسوة « وقالت اخرج عليهن » ثم تنتقل الآية مباشرة إلى مكان النسوة « فلما رأينه أكبرنه » لم تقل فدخل عليهن فلما رأينه أكبرنه لأن ذلك يضعف من تأثير المفاجأة .. ثم تصور الآية ذهول النسوة حين رأين جمال يوسف فتعلقت به أبصارهن وأخذت السكاكين فى أيديهن تمارس عملها فى الأيدى الناعمة بدلا من الفاكهة وهن ينطقن « حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » لم تذكر الآية كل هذه التفصيلات وتركتها تنمو فى عقل القارىء وخياله ..

■ □ ■

والأمثلة أكثر من أن تحصى وهى أدخل فى باب الفصاحة القرآنية .. ونعود إلى قيمة القصص القرآنى فى الناحية التاريخية ..

■ □ ■

(٦) فكتابات المؤرخين مقيدة بقصورهم الانسانى عن اختراق الغيب وكشف المستور ..

هذا مع أن مجال المؤرخين هو البحث عن الماضى وتسجيل الحاضر .

أما المستقبل فلا مجال فيه للتاريخ ومؤرخيه .

والقرآن هو الذى افتتح هذا الباب المجهول « التأريخ للمستقبل » حين أخبر عن أحداث ستقع ووقعت بعد نزول القرآن قال .

« غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »
(٣٠ / ٢ - ٣)

وحدث فى بضع سنين انتصار الروم بقيادة هرقل على الامبراطورية الفارسية ..

ولكن هرقل لم يتمتع كثيرا بانتصاره إذ أن الله قال للمسلمين وهم فى أول عهدهم بدولتهم الوليدة فى المدينة ..

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » (٢٤ / ٥٥)

وعد الله بانتصار الروم فى الوحى الذى نزل فى مكة وقد كانوا يتمنون أن ينتصر الروم بعد هزيمتهم فقال لهم الله

« وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ثم وعد الله المؤمنين فى المدينة بأن يستخلفهم فى الأرض إذا آمنوا به وحده دون أن يشركوا به شيئا أى هو وعد مشروط .

وقام المسلمون - وقتها - بالشرط فوفى الله لهم بالوعد .

وصمد المسلمون فى غزوة الأحزاب فقال لهم الله عن انتصارهم على اليهود خائنى العهد . « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها » (٣٣ / ٢٧)

أى أن الله أورثهم أرضا لم تطأها أقدامهم بعد ..

وتحقق هذا الوعد فى الفتوحات الاسلامية التى قضت نهائيا

على الامبراطورية الفارسية وقلّصت الامبراطورية الرومانية إلى تخوم العاصمة القسطنطينية ..

وبها تم فتح الشام والعراق وايران وشرقها ومصر وشمال افريقيا إلى الأندلس وجزر البحر المتوسط ..

وشهد هرقل زوال ملكه في الشام فارتحل عنه وهو يقول « وداعا ياحمص وداعا لا لقاء بعده » .. ولكن ما لبث أن عاد أحفاد هرقل في الحروب الصليبية .. !!

ثم عادوا في العصر الحديث في فترة الاستعمار ولا يزالون .. !!

وذلك لأن وعد الله لنا مشروط بأن نعبده لا نشرك به شيئا ..

وإذا قمنا بالوفاء بالشرط أو في لنا الله بالوعد :

« ومن أوفى بعهده من الله » (٩/١١١)

ولقد قال الله لنا عن اليهود أعداء الله

« لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ضربت عليهم الذلة » (٣/١١١ : ١١٢)

وهو حكم يسرى على المستقبل ، وتاريخ مستقبلى لمن يقوم بشروطه ، وقد جاءت الشروط من قبل في قوله تعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (٣/١١٠)

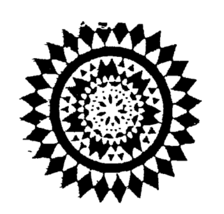
ولكن عندما لم نقم بالشروط أصبحنا نحن الذين نولى الأدبار ونقتل أنفسنا بأيدينا وأيدى الآخرين .. فاعتبروا يا أولى الأبصار ..

إن التأريخ للمستقبل جاء فى القرآن فى آيات كثيرة ترسم للمسلمين سبل النجاة من الضعف والذل ولكن المشكلة اننا لم نقرأ القرآن بعد ، ولا يزال بعضنا يعتقد أنه موجه للحديث عن الماضى .

اقرأوا القرآن يرحمكم الله .

● أحمد صبحي منصور ●

■ □ ■



الهوامش

المرجع الأساسى هو القرآن ، وهناك بعض المصادر أثبتتها الهوامش

هوامش التمهيد

(١) يوسف ١١١

(٢) الزمر ٤٣ : ٤٥

(٣) سورة قريش . وراجع كلمة عرب ومشتقاتها فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٤) لاحظ حديث القرآن عن الأعراب فى سورة التوبة ٩٠ و ١٠١ وسورة الفتح ١١ ، ١٧ والتفاصيل فى كتابنا « البحث فى مصادر التاريخ الدينى » فى « منهج القرآن فى القصص ١٩ : ٢٤

هوامش الفصل الأول

(١) يونس ٨٧ ، يوسف ٩٩,٢١ و الزخرف ٥١ ، البقرة ٦١
(٢) القاموس المحيط ١٣٩,٢
(٣) يوسف ١٠٠
(٤) فصلت ١٥
(٥) القصص ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٩ ، ٣٩
(٦) الأعراف ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٧
(٧) يوسف ٢١ ، ٥٦ ، ٥٥
(٨) غافر ٢٩ ، ٢٦
(٩) طه ٦٣ ، ٥٧ والأعراف ١١٠ ، الشعراء ٣٥
(١٠) أحمد صبحى منصور : شخصية مصر بعد الفتح الاسلامى ٩ - ١٠
(١١) يوسف ٤٣ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٦
(١٢) تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١٢١,٢,١ . ط دار الشعب
(١٣) يوسف ٤٣ : ٤٤
(١٤) يوسف ٤٤ : ٥٦
(١٥) تاريخ الحضارة القديمة ١٢١,٢,١
(١٦) يوسف ٣٥
(١٧) يوسف ٣٦
(١٨) يوسف ٤٥
(١٩) يوسف ٢٥ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ١٠٠ ، ٤٢ . الشعراء ٢٩

(٢٠) يوسف ٣٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٧٨ ، ٨٨
(٢١) يوسف ١٠١
(٢٢) يوسف ٦٧ ، ٦٨ ، ٩٣ ، ٩٩ ، ١٠٠
(٢٣) العهد القديم : سفر التكوين ٤٧/٢٧ ، ٥٠/٢٣، سفر الخروج ١/٧
(٢٤) المرجع السابق : سفر الخروج ١/٩ : ١١
(٢٥) القصص ٤
(٢٦) عزة دروزة : تاريخ بنى اسرائيل ١/٧٦ : ٨٢ سلسلة اخترنا لك رقم ٨٣ فؤاد باسيلى : حياه موسى : ٦ الطبقة الأولى ١٩٤٠
(٢٧) الاعراف ١٣٦ : ١٣٧ .
(٢٨) الدخان ٢٥ : ٢٨ . ، الشعراء ٥٧ : ٥٩
(٢٩) الاعراف ١٢٩ .
(٣٠) الاعراف ١٢٩ ، القصص ٤ : ٨ الشعراء ١٨ : ١٩
(٣١) المائدة ٢٢ : ٢٣
(٣٢) التوراة : سفر التثنية ٣٤/٥ : ٧
(٣٣) البقرة ٢٤٦ : ٢٥١
(٣٤) تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١٠٦,٢,١
(٣٥) يونس ٨٨ : ٨٩
(٣٦) المؤمنون ٤٧ ، الشعراء ٢٢
(٣٧) غافر ٢٦ ، النازعات ٢٣ : ٢٤ ، القصص ٣٨ الشعراء ٤٤
(٣٨) مونتيه : الحياة اليومية فى عصر الرعامسة ٣١٠ ، ترجمة عزيز منصور ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
(٣٩) الاعراف ١٢٣ طه ٧١ الشعراء ٤٩
(٤٠) تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١٢١,٢,١ : ١٢٢
(٤١) الزخرف ٥١
(٤٢) طه ٥٧ الشعراء ٣٤ : ٣٥ ، طه ٦٢ : ٦٤ ، الاعراف ١٢٣

(٤٣) غافر ٢٩ ، الشعراء ٢٣ . ٢٩
(٤٤) الزخرف ٥٢ : ٥٣ ، ٤٧ ، ٥٤
(٤٥) تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١٢٢,٢,١
(٤٦) البروج ١٧ ، ١٨ . يونس ٩٠ طه ٧٨ القصص ٦ ، ٨ ، ٣٩ ، ٤٠ . الذاريات ٤٠ الدخان ٢٤
(٤٧) تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١٢٥,٢,١
(٤٨) القصص ٦ ، ٨ ، ٣٨ . غافر ٣٦
(٤٩) العنكبوت ٣٩ . غافر ٢٤ : ٢٥ ، القصص ٧٦ . ٨٢
(٥٠) الشعراء ٣٦ : ٣٧ . ٤١ . ٤٢
(٥١) يونس ٨٣
(٥٢) القصص ٢٠
(٥٣) هود ٩٦ : ٩٨
(٥٤) الأعراف ١٢٧ . غافر ٢٥
(٥٥) الزخرف ٥٤ : ٥٦ القصص ٣٩ : ٤٠ .
(٥٦) الحياة اليومية فى عصر الرعامسة ٣٠٧
(٥٧) الشعراء ٥٢ : ٥٩ . الدخان ٢٥ : ٢٨
(٥٨) الشعراء ٣٤ : ٤٠ . طه ٥٩ : ٦٠ .
(٥٩) الشعراء ٥٢ : ٦٠ . الدخان ٥٣ . يونس ٨٧
(٦٠) الحياة اليومية فى عصر الرعامسة ١٣٩ ، ١٥٤ ، ١٦٠ . ١٦١ .
(٦١) هود ٩٦ : ٩٩
(٦٢) الزخرف ٥١ : ٥٤
(٦٣) القصص ٣٣ : ٣٤ ، الشعراء ١٢ : ١٤ . طه ٢٥ : ٣٢ .
(٦٤) القصص ٤ الاعراف ١٥٠ ، ١٢٨ : ١٢٩ . غافر ٢٥ يونس ٨٣
(٦٥) الشعراء ١٢ ، ١٤ . القصص ٣٣ : ٣٤ ، ٣٥ . طه ٤٣ . ٤٦ . غافر ٢٦ : ٢٨

(٦٦) القصص ١١ - ١٥ ، ١٩ : ٢١ . يس ٢٠ الاحزاب ٢٣ ، هود ٧٨

(٦٧) غافر ٢٨ ٤٥ ، ٢٦ . التحريم ١١ الشعراء ٥٣ : ٥٦

(٦٨) آل عمران ١٥١ . ١٧٥

(٦٩) غافر ٣٧

(٧٠) طه ٧١ الشعراء ٢٩ الدخان ٢٠ : ٢١

(٧١) ابراهيم ٦

(٧٢) يونس ٩٠ ٩٢

.. ..

هوامش الفصل الثانى

(١) طه ٥٩

(٢) يوسف ٣٠ : ٣٤

(٣) القصص ٣٣

(٤) الحياة اليومية فى عصر الرعامسة ٤٨ : ٥٠ .

(٥) الاعراف ١٣٠ : ١٣١

(٦) يوسف ٢٣ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٢١ ، ٣٠

(٧) نقلا عن تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١ ، ٢ ، ١٣٥

(٨) يوسف ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٥

(٩) وردت الاسطورة فى تاريخ الحضارة المصرية القديمة ١ ، ٢ ، ١٤٤ : ١٤٥ .

(١٠) يوسف ٢٦ : ٢٩ ، ٣١ ، ٥١ .

(١١) ارمان : ديانة مصر القديمة ١٧٧ . ترجمة عبدالمنعم بكر انور شكرى . ط البابى الحلبى .

(١٢) يوسف ٥٠ : ٥٣ ، ٣١ ، ٥١ .

(١٣) ارمان : ديانة مصر القديمة ٧٠

(١٤) وليم نظير : المرأة فى تاريخ مصر القديمة ٤٠ : ٤١

(١٥) النمل ١٤ ، الاعراف ١٣٤ : ١٣٥ .. الدخان ١٨ : ٢٠

(١٦) غافر ٢٨ : ٤٤

(١٧) التحريم ١١ القصص ٩
(١٨) الشعراء ٥٠ : ٥١ . الاعراف ١٢٥ : ١٢٦ طه ٧١ : ٧٤
(١٩) يوسف ٣٦ : ٤٠ غافر ٣٤ . يوسف ١٠٦ الزخرف ٥٣
(٢٠) البقرة ٦٢ آل عمران ٢١ ، ١١٢
(٢١) الأعراف ١٣٨ طه ٨٦ : ٩٧ . البقرة ٩٣
(٢٢) التوبة ٣٠
(٢٣) ارمان . ديانة مصر القديمة ٤٨ : ٥٠
(٢٤) القصص ٣٦ يونس ٧٨
(٢٥) الاعراف ١١١ : ١١٢ ، ١١٦ . طه ٦٥ : ٦٩ . النمل ١٤ .
(٢٦) غافر ٢٨ : ٣٥
(٢٧) الاعراف ١١١ الشعراء ٢٦ ، ٥٣ .
(٢٨) الاعراف ١٢٣ . يوسف ١٥ ، القصص ١٥ ، ١٨ ، ٢٠
(٢٩) غافر ٣٥ : ٣٦ القصص ٣٨ .
(٣٠) النمل ٤٤
(٣١) النبأ ٧ ص ١٢. الفجر ١٠
(٣٢) التحريم ١١
(٣٣) الاعراف ١٣٧
(٣٤) النمل ٥١ ، ٥٢
(٣٥) الدخان ٢٥ : ٢٧
(٣٦) يوسف ٤٧ : ٤٩ ، ٥٥ : ٥٦ ، ٢٠ ، ١٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٨٨ ، ٥٩ ، ٨١ ، ٨٢ .
(٣٧) الشعراء ٥٧ : ٥٨ ، الدخان ٢٥ : ٢٧ . الاعراف ١٣٠
(٣٨) الحياة اليومية فى عصر الرعامسة ٣٨
(٣٩) الزخرف ٥٣ ، الاعراف ١٤٨ . طه ٨٧
(٤٠) البقرة ٦١ المائدة ٢٢ .

هوامش الفصل الثالث

(١) يوسف ١١١ ، النازعات ٢٦

(٢) القصص ٣ ، ٥ : ٦ ، الاعراف ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٢٨

(٣) يونس ٨٤ : ٨٨

(٤) البقرة ٤٥ : ١٥٣

(٥) الاعراف ١٣٣ : ١٣٦

(٦) فاطر ١٢

(٧) طه ٣٩ . الاعراف ١٣٦

(٨) يونس ٩٠ الشعراء ٦٠ : ٦٣ الاعراف ١٣٧ : ١٣٨

(٩) ابراهيم ٢٨

(١٠) القصص ٧ : ١٣

(١١) النور ٥٥ الرعد ١١

(١٢) القصص ٤٠ : ٤٣

(١٣) طه ٥١ : ٥٢

(١٤) يونس ٩٢

(١٥) المائدة ٣١

(١٦) غافر ٤٥ : ٤٦

(١٧) المؤمنون ٩٩ : ١٠٠

(١٨) يس ٥١ : ٥٢ الروم ٥٥ : ٥٦

(١٩) القصص ٥ : ٦

(٢٠) البقرة ١٥٤ . آل عمران ١٦٨ : ١٦٩

(٢١) يونس ٤٥ . النازعات ٤٦

(٢٢) هود ٩٨

(٢٣) الزخرف ٥٥ : ٥٦

(٢٤) آل عمران ١١ . الانفال ٥٢ ، ٥٤
(٢٥) آل عمران ١٢٧
(٢٦) القصص ٣٨ . النازعات ٢٣ : ٢٤
(٢٧) يونس ٩٠ : ٩١ . النساء ١٨
(٢٨) يونس ١٢ الروم ٣٠
(٢٩) السجدة ٢٩ يوسف ١٠٦ غافر ٤٢ التوبة ١٧
(٣٠) آل عمران ١٩ ، ٨٥ . الانبياء ٢٥ ابراهيم ٤ : ٥
(٣١) يونس ٧٢ البقرة ١٣١ : ١٣٣
(٣٢) يوسف ١٠١ الاعراف ١٢٦ . يونس ٨٤
(٣٣) يوسف ٤ ، ٩٩ ، ٢١ ، ١٠١ .

□ □ □

الفهـرس

الفصل الثانى :

....

الفصل الثالث :

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٦٣٦ / ٩٠

الترقيم الدولى ١ ـ ٣٥٥ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧ ISBN

● كتاب اليوم ● عدد أول مايو

دموع صاحبة الجلالة



للكاتب الكبير

موسى صبرى



طبعت بمطابع الأخبار

١٠٠ قرش